

الإرهاصات الأسطورية للإيكولوجيا النسوية

Mythological implications of Ecofeminism

إعداد

أ. زينب حميدة عبد العزيز إبراهيم
أ. د. فضل الله إسماعيل سلطح
باحثة دكتوراة تخصص فلسفة سياسية
أستاذة فلسفة السياسة بقسم الفلسفة
وعميد كلية الآداب الأسبق
كلية الآداب - جامعة دمنهور

دورية الانسانيات . كلية الآداب . جامعة دمنهور
العدد الثاني والستون - يناير - الجزء الثالث - لسنة 2024

الإرهاصات الأسطورية للإيكولوجيا النسوية

أ.زينب حميدة عبد العزيز إبراهيم

أ.د. فضل الله إسماعيل سلطح

الملخص

كان لأساطير العالم القديم العديد من النماذج المعبرة عن عبادة الطبيعة الأم. حيث كان التماهي ما بين المرأة والطبيعة والربط بينهما سبباً في عبادتهما في صورة واحدة، وكذلك كان سبباً في الهيمنة عليهما. وهو ما أكدته الإيكولوجيا النسوية، من أن وجود ارتباطات بين النساء والطبيعة مهَّد عملية الهيمنة على كليهما عبر التاريخ. لهذا يركز البحث على نماذج الألوهة المؤنثة في مختلف الحضارات والتي دمجت بين الطبيعة وعناصرها وماهيتها، وبين المرأة. وخاصة رمزية الجسد في هذه الأساطير بوصفه أثراً اجتماعياً وثقافياً يحمل وراء طياته الكثير من المعلومات والبيانات. فقد كان للجسد في ثقافات العالم القديم أهميةً جوهريةً في حياة الإنسان. ولهذا تم التركيز على الأعضاء الجنسية البشرية في تشكيل التماثيل وتصويرها بشكل عام، وتماثيل المرأة بشكل خاص. ولهذا كانت عبادة الإلهة الأم مرادفةً لعبادة الخصوية، لذلك تم الربط بينها وبين الطبيعة بوصفها مصدرًا للعطاء. وعليه سيتم في هذا البحث عرض آلهة الحضارات القديمة وأساطيرها في عصور الكتابة، وما قبل الكتابة. من خلال الحديث عن الميثولوجيا القديمة وعبادة الطبيعة الأم في العصور الحجرية بشقيها القديم والوسيط. ثم بعد ذلك عرض أساطير الألوهة المؤنثة في حضارة بلاد الرافدين بشقيها التاريخيين: العصر الحجري الحديث وعصر الكالكوليت. ثم بعد ذلك سيتم عرض نموذج إيزيس في الحضارة المصرية القديمة كنموذج لتأنيث الطبيعة، انتقالاً بعد ذلك للنسوية الوثنية في الأساطير اليونانية. حتى نتعرف في النهاية عن النتائج المترتبة على هذا الربط، وما إذا كانت هذه الأساطير قد اقتصررت في هذا التأليه على الصفات الجسدية فحسب؟ أم أنه كان للإلهات قوى ووظائف أخرى تتعلق بالثقافة والحياة الفكرية بقدر ما كانت تتعلق بالطبيعة؟

Abstact

Ancient world mythology had many examples of the cult of Mother Nature. The identification between woman and nature and the connection between them was a reason for the cult of them in one image, and it was also a reason for the domination over them. This has been confirmed by Ecofeminism, that the connections between women and nature supported the process of domination over both throughout history. This is why this research focuses on models of feminine divinity in various civilizations that merged between nature, its elements and essence, and women. Especially the symbolism of the body in these myths as social and cultural evidence that hides a lot of information and data. In the cultures of the ancient world, the body had fundamental importance in human life. That is why the focus was on the human sexual organs in the formation and depiction of statues in general and statues of women in particular. That is why the worship of the mother goddess was synonymous with the worship of fertility, and therefore it was linked to nature as a source of giving. Accordingly, this research will display the gods and myths of ancient civilizations in the written and pre-writing eras. By talking about ancient mythology and the worship of Mother Nature in the Stone Ages, both ancient and intermediate. Then, will present the myths of the feminine divinity in the Mesopotamian civilization in both its historical parts: the Neolithic Age and the Chalcolithic Age. Then, the model of Isis will be presented in ancient Egyptian civilization as a model for the feminization of nature, then a transition to pagan feminism in Greek mythology. So we can finally know the consequences of this connection, and whether these myths were limited in this deification to physical attributes only? Or did the goddesses have other powers and functions related to culture and intellectual life as much as they were related to nature?

المقدمة

اشتملت أساطير العالم القديم على العديد من النماذج المعبرة عن عبادة الطبيعة الأم، والتي لا يمكن إغفالها بأي شكل من الأشكال؛ فإذا كانت الأسطورة ضرباً من الخيال بالنسبة لبعض العلماء والدارسين، إلا أنها كانت – وما تزال – "الوسط الذي واجه فيه الإنسان مشكلاته الكبرى والدائمة (كالموت والمصير والنشر وأصل الأشياء، غايتها ومعناها)، كانت الأسطورة بالنسبة له كل شيء؛ تمثل تأملاته وحكمته، منطقته وأسلوبه في المعرفة، أدواته الأسبق في التفسير والتعليل؛ أدبه وشعره وفنه، وعرفه وقانونه... كانت انعكاساً خارجياً لحقائقه النفسية والداخلية" (1). لذلك لا يمكن تناسي أو تجاهل دور الأسطورة في تشكيل الوعي والثقافات الإنسانية. حيث تُعبّر عن صميم الحياة الإنسانية، وتفسر خفاياها، وتربط الإنسان بكل جوانبه بكافة جوانب الحياة المحيطة به، ولهذا، نجد في أساطير العالم القديم أنه "لم يكن وجود الآلهة منفصلاً عن وجود العاصفة والبحر والنهر، ولا منفصلاً عن العواطف الإنسانية الجامحة، مثل الحب والغضب والشغف الجنسي، والتي يظهر أنها ترفع الرجال والنساء مؤقتاً إلى نمط وجود مختلف، حيث يرون العالم – من خلالها – بعيون مختلفة. إذن تساعد الأسطورة على التعامل مع المآزق البشرية المستعصية، وإعانة الناس على تحديد موقعهم في العالم وتحديد وجهتهم فيه" (2).

وقد ظهرت للمرة الأولى في فلسفة عند شلنج Friedrich Wilhelm Joseph von Schelling (1775- 1854) (*)، حيث رأى أن الأسطورة "تقع على الطرف المقابل للفكر الفلسفي، وأصبحت الحليفة الطبيعية له، أو بتعبير أدق، أصبحت الأسطورة تمثل الفلسفة في أكمل صورها. وفي المقابل رأت الفلسفة أن كل ما تحمله الأسطورة – من صور ورموز – لا بد أن تحتوي على معنى فلسفي عميق، وإذا كانت الأسطورة

¹ . أمل مبروك: الأسطورة والأيدولوجيا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2011، ص 8.

² . كارين أرمسترونج: تاريخ الأسطورة، ترجمة د.وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2008، ص 11-12.

(*) فريدريك فيلهلم يوزف شلنج : ولد في ليونبرج بمقاطعة فورتمبرج بجنوب غرب ألمانيا في 27 يناير 1775. كان أبوه على دراية باللاهوت و ببعض اللغات الشرقية وأدائها. والتحق في أكتوبر 1790 بجامعة توبنجن وأمضى بها خمس سنوات درس فيها الفلسفة واللاهوت، تعرف فيها على شخصيتين من أهم الشخصيات التي أثرت في مستقبله: الشاعر هيلدرن و الفيلسوف هيغل. وفي سبتمبر 1792 حصل على درجة الماجستير في الفلسفة، وفي سنة 1765 حصل كذلك على الدرجة ذاتها في اللاهوت. عين في جامعة بينا، وبعد ذلك أستاذاً في جامعة فورتمبرج. عاد بعد ذلك إلى كرسي الأستاذية في جامعة إيرلنجن عام 1820. بعد وفاة هيغل عُيّن في جامعة برلين حيث كان الموضوع الرئيس التي تدور حوله محاضراته هو فلسفة الأسطورة والوحي. آمن بمبدأ وحدة الطبيعة، وكان له آراء في الفلسفة المتعالية. توفي في رجتس بسويسرا في 20 أغسطس 1854.

عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984، ص 25-30.

تخفى هذا المعنى أو تطويه، فمهمة الفلسفة أن ترفع الغطاء عن كل ما هو مستتر، وأن تقوم بعملية تفسير لهذه الرموز" (3).

ومن هذا المنطلق تتجلى أهمية الأسطورة في كونها أساساً لأيديولوجيات عظمى تحكمت – وما تزال تتحكم – في البشرية عقوداً طويلة. فهي ليست مجرد قصة من نسج الخيال، ولكنها دعامة لعلوم، وسياسات، واقتصاد تطبيقي بحث، تحكم في الحياة العضوية بشكل عميق.

وقد كان التماهي ما بين المرأة والطبيعة والربط بينهما سبباً في عبادتهما في صورة واحدة – في أساطير العالم القديم – وعلى صعيدٍ آخر، كان أيضاً سبباً في الهيمنة على كل منهما. وهو ما أكدته الإيكولوجيا النسوية Eco feminism (*) من أن وجود ارتباطات بين النساء والطبيعة مهَّدَ عملية الهيمنة على كليهما عبر التاريخ، وهو ما عمدت كارين ج. وارن Karen J. Warren (1947-2020) (***) إلى عرضه وتحليله في

³ . كارم محمود عزيز: أساطير التوراة الكبرى و تراث الشرق الأدنى القديم، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، الطباعة، دمشق، سوريا، 1999، ص 17.

(*) الإيكولوجيا النسوية Ecofeminism وتسمى أيضاً Ecological feminism : هي فلسفة جمعت ما بين أفكار كل من الفلسفة النسوية والفلسفة البيئية؛ أي أنها فلسفة تؤكد أن الطبيعة قضية نسوية بقدر ما تُسهمُ المشكلات البيئية في فهم الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية، وفكرة التبعية للنساء. ووضع تعريف ثابت ومحدد للإيكولوجيا النسوية أمرٌ صعبٌ؛ إذ أنه لا توجد نسوية واحدة، بل هناك عدة فلسفات نسوية (على سبيل المثال: الليبرالية، الراديكالية / الثقافية، الاجتماعية / الاشتراكية). ولكل فلسفة أسباب بيئية مختلفة عن الأخرى. ولكن على الرغم من اختلاف هذه الفلسفات واختلاف ادعاءها الفلسفية إلا أن هناك عدة محاور تجمع بينها لا محالة. أول هذه المحاور هو أن كل الإيكولوجيين النسويين مهتمين بالقضايا النسوية والبيئية على حد سواء. ثانياً: كل الفلسفات الإيكولوجية النسوية تؤكد وجود ترابط بين الهيمنة على الطبيعة والهيمنة على النساء وغيرها من الآخرين. وغالباً ما يُستخدَم مصطلح (الآخرين) من قبل مفكرات النسوية للإشارة إلى أي وصف أو توصيف للكائنات [الحيوانات البشرية وغير البشرية]، و"الكائنات الطبيعية" [مثل الغابات ومستجمعات المياه] والطبيعة نفسها بوصفها مجرد أشياء لا تستحق أن يكون لها خصوصية وقيمة أخلاقية. كذلك من أهم سمات هذه الفلسفة حرص أصحابها على تفكيك الأنظمة غير المبررة للهيمنة البشرية. بهذا يمكن القول إن النسوية الإيكولوجية ليست موقفاً أو حدثاً ثابتاً، لكنها - بالأحرى - طريقة في التفكير أو مجموعة من الممارسات تدور حول العلاقة بين الجنسين والبحث المستمر والكشف عن التحيز الذكوري (المرفوض) في أي مكان، ليس تجاه المرأة فحسب، ولكن تجاه كل الكائنات الحية وغير الحية.

Karen J. Warren; Encyclopedia of Environmental Ethics and Philosophy, Vol.1, Edit by J. Baird Callicott and Robert Frodeman, Macmillan and Reference, USA, 2009, PP.228-229.

(**) كارين ج. وارن: وُلدت في لونغ آيلاند، نيويورك، في 10 سبتمبر 1947. وحصلت على درجة البكالوريوس في الآداب من جامعة مينيسوتا في عام 1970. منحتها جامعة ماساتشوستس في أمهيرست درجة الماجستير في عام 1974 ودرجة الدكتوراة، في عام 1978 لواحدة من أولى الأطروحات حول الأخلاقيات البيئية. شغلت كرسي المرأة في الدراسات الإنسانية في جامعة ماركيت في عام 2004. وهي خبيرة دولية في الأخلاقيات البيئية، والنسوية، ودراسات السلام. كتبت وارن جزء "النسوية البيئية والعدالة الاجتماعية" ضمن كتاب الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى علم البيئة الراديكالية (2005). أشهر عمل ل وارن اعتباراً من عام 2008 هو مؤلف: "قوة ووعد النسوية البيئية، The Power and Promise of Ecological Feminism"، الذي طُبِع لأول مرة في أخلاقيات البيئة في عام 1990 ، وأعيدت طباعته على نطاق واسع، وترجم إلى خمس لغات ، ونُقِح في عام 2005. وقد جادل في أن هناك روابط مهمة بين هيمنة المرأة واستغلال الطبيعة؛ أي أن المرأة والطبيعة موضوعان للإطار المفاهيمي الأبوي القمعي نفسه. وهي تحدد السمات الرئيسة للإطار المفاهيمي القمعي: ثنائيات القيمة المعارضة، والتفكير الهرمي، ومنطق الهيمنة الذي يفترض أن التفوق المزعوم يبرر تبعية من يُزعم أنهم أدنى مرتبة. =

كتاب (الفلسفة البيئية) لمحرره مايكل زيمرمان، حيث اعتمدت هذه التحليلات على حقيقة واحدة مؤداها: أن هذا الارتباط قائم على وجود توافق في الكيان المادي لكل من المرأة و الطبيعة، فكلاهما يمثلان المصدر الدائم لكل أشكال الحياة العضوية فحسب، في حين ينفرد الرجل بالطبيعة العقلية والثقافية والفكرية، مما يبرر الهيمنة و السيطرة من قِبَل الرجل على كل منهما؛ وذلك لعلو الرجل ودونية كل من المرأة و الطبيعة.

من هنا سيتم التركيز على نماذج الألوهة المؤنثة في مختلف الحضارات والتي دمجت بين الطبيعة وعناصرها وماهيتها وبين المرأة. وهو ما يفسر بدوره تركيز الدراسات التاريخية - في بحثها لأساطير العالم القديم - على (الجسد)^(*) بوصفه أثرًا اجتماعيًا وثقافيًا يحمل وراء طياته الكثير من المعلومات والبيانات، ويسرد الكثير من الحكايات، فلم يتم التعامل مع الجسد بمجرد وصفه وعاءٍ يحوي العقل أو الروح بوصفهما يشكلان الجوهر الحقيقي للشخص، بل على العكس، فقد كان للجسد في ثقافات العالم القديم أهميةً جوهريةً في حياة الإنسان: "الجسدُ ليس مادةً بيولوجيةً أساسيةً فحسب، ولكنه أيضًا منتجًا ثقافيًا في حد ذاته"⁽⁴⁾. ولهذا كان التركيز على الأعضاء الجنسية البشرية Human sexual organs في تشكيل التماثيل وتصويرها بشكل عام، وتماثيل المرأة بشكل خاص. ولهذا كانت عبادة الإلهة الأم مرادفةً لعبادة

=النظام الأبوي بيني ثنائية الرجل والمرأة بشكل هرمي لتأسيس امتياز الذكر ويستخدم هذا الامتياز لإقرار اضطهاد المرأة. وتؤكد وارين خلال كتاباتها وجود روابط مهمة بين هيمنة المرأة واستغلال الطبيعة؛ أي أن المرأة والطبيعة موضوعان للإطار المفاهيمي الأبوي القمعي نفسه. وهي تحدد السمات الرئيسة للإطار المفاهيمي القمعي، بأنها تعتمد على: ثنائيات القيمة المتعارضة oppositional value dualisms، والتفكير الهرمي hierarchical thinking، ومنطق الهيمنة a logic of domination، الذي يفترض أن التفوق المزعوم يبرر تبعية من هم في مرتبة أدنى (أي النساء والطبيعة). النظام الأبوي بيني ثنائية الرجل والمرأة بشكل هرمي لتأسيس امتياز الذكر، ويستخدم هذا الامتياز لإقرار اضطهاد المرأة. أول كتاب من تأليف وارين هو "فلسفة البيئة النسوية: منظور غربي حول ماهيتها ولماذا هي مهمة. Ecofeminism Philosophy: A Western Perspective on What It Is and Why It Matters" (2000). وهو عمل فلسفي لغير المتخصصين، لتعريف النسوية البيئية، وعرض إمكاناتها، والدفاع عنها ضد الانتقادات الموجهة إليها.

Trish Glazebrook: Warren Karen J., from Encyclopedia of Environmental Ethics and Philosophy, edited by J.Baird p.386. 2009. Learning Callicott and Robert Frodeman, VOLUME 1, Cengage

^(*) الفرق بين الجسد والجسم: "الجسد هو ما عبرت عنه اللغة الألمانية بعبارة Leib (اللحم)، ويوجد في اللغة الألمانية كذلك لفظ Körper وهو المستعمل في الفيزياء: أي الجسم؛ وكلمة Leib هي مفهوم جامع بين الحقيقة الفيزيائية والعقلية، والتي هي نحن أي جسدنا. والمراد بالجسد هو ذلك الكائن الحي الذي هو منبع الوعي والفكر والحركة".

أحمد عبد الحلیم عطية: فلسفة الجسد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006، ص 12.

⁴ Zainab Bahrani، First Ed.، Routledge، London and Women of Babylon؛ Gender and Representation in Mesopotamia، New York، 2001، p.41.

الخصوبة Fertility Cult ، لذلك تم الربط بينها وبين الطبيعة بوصفها مصدرًا للعباءة و الخصوبة.

من هنا يبرز عددٌ من التساؤلات المهمة، وهي: هل اقتصر أساطير عبادة الآلهة الأنثى Female divine في حضارات العالم القديم على نموذج الإلهة الأم فقط؟ أم أن بعض مجتمعات الآلهة قد اشتملت على إلهة أنثى بصفات الشخصية دون أن يكون لها أية علاقة بكونها أمًا؟ وكذلك إذا كان الإنسان القديم قد آله المرأة أو الأنثى أو الأم، هل اقتصر هذا التأليه على الصفات الجسدية فحسب بوصفها صفات تعبر عن وظيفة المرأة الوحيدة (الإنجاب و العناية والرعاية)؟ أم أنه كان للإلهات قوى ووظائف تتعلق بالثقافة والحياة الفكرية بقدر ما كانت تتعلق بالطبيعة؟

ومن ثمّ سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال عرض آلهة الحضارات القديمة وأساطيرها في عصور الكتابة، و ما قبل الكتابة. وسنبدأ عرض هذه الحضارات والثقافات - أولاً - بالحديث عن الميثولوجيا القديمة وعبادة الطبيعة الأم في العصور الحجرية بشقيها القديم والوسيط (*). ثم بعد ذلك ننتقل لعرض أساطير الألوهة المؤنثة في حضارة بلاد الرافدين بشقيها التاريخيين، العصر الحجري الحديث وعصر الكالكوليت (**). ثم بعد ذلك سنعرض نموذج إيزيس في الحضارة المصرية القديمة كنموذج لتأنيث الطبيعة، انتقالاً بعد ذلك للنسوية الوثنية في الأساطير اليونانية وهنا لابد من الإشارة إلى أنه على الرغم من سرد هذه الأساطير حسب ترتيبها التاريخي والزمني فإننا سنسلط الضوء على الجانب الوظيفي لها وفق ما يقتضيه موضوع البحث. فالأسطورة في النهاية " هي نتاج للخيال الإنساني نشأت من موقف

(*) يُطلق على العصر الحجري القديم اسم الباليوليت Paleolithic (12,000-500,000) ق.م. وهو العصر الذي تضمن العصور الجليدية الأربعة. وقد سادت فيه صناعة الأدوات الحجرية (الفؤوس والشظايا و النصال). وكان تطور الإنسان في هذه الفترة يتم ببطء شديد لإعاقة الجليد حركته وحياته، وجعله مختبئاً في الجليد أغلب وقته. أما العصر الحجري الوسيط فيطلق عليه اسم الميزوليت Mesolithic (8,000-12,000) ق.م. في هذا العصر كان قد ذاب الجليد وبدأت الفترة غير الجليدية، وتميز هذا العصر ببداية تدجين الحيوانات. وكذلك كانت البداية في استخدام الأدوات الدقيقة .

(**) يطلق على العصر الحجري الحديث اسم النيوليت Neolithic (5000-8000) ق.م. وهو العصر الذي بدأ فيه الإنسان باكتشاف الزراعة والتدجين الواسع للحيوانات، وظهور القرى الزراعية المنظمة وتطور صناعة الخزف (الفخار) وظهور الآلات الحجرية المصقولة، وكان بداية ظهور هذا العصر الحجري الحديث في بلاد الرافدين في الشمال. أما يطلق الكالكوليت Chalcolithic على العصر الحجري المعدني والذي يمتد من (3000-5000) ق.م. وهو العصر الذي اكتشف فيه الإنسان المعادن وبدأ بتطويعها واستخدامها في حياته اليومية. وكذلك هو العصر الذي ارتبط بنشوء المدن وظهور المعابد. وظهر هذا العصر في بلاد الرافدين جنوباً. خزلع الماجدي: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، سلسلة التراث الروحي للإنسان، ج1، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1997، ص 26-28.

مُحدد، واتجهت إلى فعل شيء ما، ومن ثم فالسؤال الصحيح الذي يجب أن يُسأل ليس عن مدى مصداقية الأسطورة، بل عن ماهية مقصدها" (5).

أولاً- الميثولوجيا القديمة وعبادة الطبيعة الأم

تُعَدُّ دراسة أساطير ما قبل الكتابة دراسة شائكة إلى حد ما؛ حيث لم تظهر الكتابة في وقت واحد في جميع الثقافات، هذا بالإضافة إلى عدم وجود لغة مكتوبة للتعرف على ثقافة ما بشكل واضح ومباشر. فمثلاً إذا تطرقنا إلى فهم الظاهرة الدينية يصبح الأمر عسيراً؛ ذلك أن الدين في المقام الأول قائم على اللغة والاختلاف بين المصطلحات. إلا أن هذا لا يعني أن الكتابة هي الوسيلة الوحيدة للتعرف على شعب أو ثقافة ما، وعلى الرغم من أننا لن نستطيع الوصول لتفسير الظاهرة الدينية بشكل عميق وكامل لعصور ما قبل التاريخ، وذلك بسبب ندرة الأدلة المادية، فإن معرفتنا لديانة ما قبل التاريخ قد اعتمدت على عملية إعادة بناء لغة من ملحقاتها وأثارها الصامتة، هذه الملحقات التي لا تعبر فحسب عن ديانة هذه الشعوب، بل عن طبيعتها ككل.

ولصعوبة وجود كتابة محددة ومعروفة للعصر الحجري، ولأن الأسطورة دوماً ما تعتمد في تفسيرها على التشخيص، والتجسيم، والتمثيل، فإن كافة المعلومات والبيانات التي وصلت إلينا عن هذه الأساطير – سواء في عصور ما قبل التاريخ، أو حتى العصور التاريخية – اعتمدت على ما أنتجته هذه الحضارات من أعمال فنية تشكيلية، والتي لا يمكن عدّها مجرد رسوم أو تماثيل توضيحية، بل هي بالأحرى شفرات يتم فكها لمعرفة ما تنطوي عليه من بيانات. ولعل أهم ما اعتمد المؤرخون في معرفتهم لطبيعة هذه الشعوب هو رسومات الجداريات الكهفية لتلك الحقبة، والتي لم تقف عند حد كونها أعمال فنية بحتة، بل عبرت عن معتقدات ومقدسات تلك الفترة. وقد تنوعت هذه الرسومات ما بين أشكال للحيوانات وإشارات ورموز وأشكال للبشر، لكن دون وجود تفاصيل دقيقة لهم. وقد عبّرت هذه الرسومات عن الاحتياجات والمتطلبات الطبيعية للإنسان، وذلك لأن "هوية شعوب ما قبل الكتابة وتفسير مؤسساتهم الاجتماعية ومعتقداتهم وأساطيرهم يتحدد من خلال معرفة احتياجاتهم الأساسية وضروريات الحياة المعيشية في ذلك الوقت، وسبل إشباع الدوافع الجنسية، وهذا

5 . S.H. Hook :Middle Eastern Mythology, Pelican book, published by Penguin Books, 1968, U.K, p.11.

المفهوم واسع الانتشار في الأنثروبولوجيا عمومًا تحت مسمى الوظيفة functionalism⁽⁶⁾. وبذلك فإن تفسير أي أسطورة والوصول للبعد الفلسفي فيها يتطلب بالضرورة فهم واقع هذه الشعوب والحضارات والتطرق لاستيعاب احتياجاتهم الأساسية، وبذلك لا يمكن الزعم بأن الأسطورة مجرد ضرب من الخيال لا علاقة له بالواقع.

وقد تركّزت الاحتياجات والمتطلبات الطبيعية للإنسان في ذلك الوقت حول توفير الغذاء والماء، وكذلك حول النار بوصفها المقدس الأول. ولهذا اعتمدت الرسومات في بدايات العصر الحجري على النار والحيوانات وتقديسهم. ولكن بعد ذلك اتسعت القاعدة الدينية والروحية لإنسان العصور الحجرية وأصبحت تهتم بالخصوبة الجسدية والولادة والتكاثر، بشكل لا يقل أهمية عن اهتمامهم بتوفير الغذاء، مما انعكس بدوره على المعتقدات الدينية. من هنا احتلّ خصب الطبيعة جزءًا كبيرًا من معتقدات الإنسان وعباداته وطقوسه، في عصور ما قبل التاريخ وما بعده، فعبدها في صورة أنثى؛ لأن الإنسان منذ فجر وعيه وهو مؤمن بأن بقاءه مرهون بالتكاثر والغذاء، ومن دونهما ينقرض جنسه إلى الأبد. "وعندما تعلم الإنسان الزراعة وجد في الأرض أمًا رؤومًا كبرى، فهي التي تحمل روح الخصوبة وهي التي تغذيه. يخرج الزرع من بطنها كما يخرج الوليد من بطن أمه، هي الأم الحاملة والمولدة، مانحة الحياة ومنجبتها أو منتجتها، وما إخصاب التربة إلا نوع من الميلاد المتجدد للمحصول. مما حدا بعقله إلى عبادتها وتقديسها، واعتبارها قوة أنثوية خالقة"⁽⁷⁾.

كان للمرأة في ميثولوجيا الحضارات القديمة مكانة كبيرة و أهمية عظيمة، فرغم اختلاف هذه الثقافات والحضارات فقد تم تقديس المرأة بوصفها عضو محوري وأساسي في مجتمعات الآلهة (البانثيون) The Pantheon^(*) ، وعلى اختلافها وتنوعها

⁶Léve-Strauss; Myth and Meaning; Routledge Classics, First Ed, 2001, P.5, First Published in the U.K 1978 by Routledge and Kegan Paul, p.5.

7 . إحسان الديك: صدى عشتار في الشعر الجاهلي، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، مجلة جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، المجلد 15، 2001، ص 145.

^(*) البانثيون The Pantheon: كلمة يونانية تعني معبد كل الآلهة، تأسس عام 27 قبل الميلاد. من قبل ماركوس فيبسانتيوس أغريبا، يشير إلى أحد أقدم المباني والتي تم الحفاظ عليها وترميمها أكثر من مرة، وأطلق عليه هذا الاسم لأنه كان يضم تماثيل للعديد من الآلهة، وبخاصة آلهة الأوليمب. ويبدو أنه قد كان للبانثيون بعدٌ سياسيٌ أيضًا؛ حيث مُثّل مكانًا للإمبراطور للتوافق مع الآلهة خلال فترة حياته، ولعبادة الإمبراطور نفسه، وتكرمه، وصنع التماثيل له، وبعد وفاته يتم تأليهه وعبادته بوصفه إلهًا.

Caitlin Williams; A study of the Pantheon Through Times, Submitted in Partial Fulfillment of the Requirement for Honors in the Department of Classics, Union College, June, 2018, p.8.

بين الثقافات القديمة، فقد كانت الإلهة الأولى والرئيسة الخالقة للكون والمانحة للحياة، وأيضاً كانت زوجة للإله الأكبر مما جعلها تستمد أهميتها منه.

وهنا جاءت أساطير و تماثيل الأم الكبرى^(*) لتعبر عن رموز لكائنات فوق طبيعية كانت محل عبادة الإنسان الأول. وقد عبرت هذه التماثيل عن التماهي بين المرأة و بين الطبيعة فيما يتعلق بالعطاء والخصوبة والعناية، "فهناك قدرة إلهية تبدو كأَم، و كأنثى كونية متطابقة مع نظام الطبيعة لا متعالية عليه، فاعلة فيه"⁽⁸⁾. فكما أن الأم تمتلك أسباب الحياة للطفل، فكذلك الطبيعة تُعدُّ مصدر للحياة لكل الكائنات، "فالأرض هي الأم الحقيقية للإنسان ولجميع مظاهر الحياة عليها، من بطنها تخرج عشباً و زرعاً و شجراً، حياة للإنسان والحيوان، ومن أعماقها تنفجر ينابيع الحياة، وعلى سطحها تسيل مجاري الأنهار. يلتصق بها الإنسان في حياته ويعود إلى جوفها عند مماته"⁽⁹⁾.

ومن ثمَّ فإن الربط بين المرأة و الطبيعة يضرب بجذوره في عمق التاريخ الإنساني ويمتد لبداية المجتمعات الإنسانية، حيث عمدت حضارات العالم القديم بداية من العصور الحجرية - عصور ما قبل التاريخ Prehistoric Times - إلى عبادة الطبيعة وتقديسها. ولكن من خلال تصويرها وتمثيلها في هيئة أنثى وأم^(*)، ومن خلال التأكيد على العامل المشترك بينهما وهو الإنتاج والإنجاب، ولهذا تم التركيز على الأعضاء التناسلية في تشكيل تماثيل الطبيعة الأم، حتى أن بعض هذه التماثيل جاء على شكل جسد دون رأس، وإذا كان بها رأس فتكون "مجرد مقبض بدون أي إشارة إلى ملامح الوجه على الإطلاق"⁽¹⁰⁾.

^(*) وقد كان لأساطير الألوهة المؤنثة أهمية قصوى في الفكر الإيكولوجي النسوي "ففي كتاب الإيكولوجيا النسوية 1978، تؤكد الكاتبة الأمريكية النسوية الراديكالية ماري دالي أن النظام الأبوي سلب المرأة قوتها الأسطورية، ودعت إلى ضرورة استيعاب الصلة بالأساطير المتمركزة حول المرأة، إذا أرادت المرأة أن تعرف نفسها حق المعرفة".

نبيل راغب : أزمة الأدب النسوي، ط1، المكتبة الأكاديمية، الجيزة، القاهرة، 2013، ص 34.

8 . فراس سواح : لغز عشقنا: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دارعلاء الدين، دمشق، سوريا، 2002، ص 42.

⁹ . فراس سواح : المرجع نفسه ، ص 50.

^(*) قامت هذه الأساطير في الأساس على التمثيل بالجنس Gender. وتبدو خطورة هذا التمثيل، في التراكم غير المحدود للكثير من النماذج الأيديولوجية التي تبرر القمع والسيطرة والهيمنة على كل من المرأة والطبيعة من خلال التركيز على الجانب المادي لكليهما، والتأكيد على دونيته. حيث اختزلت المرأة في مجرد وعاء إنجابي، بالضبط مثل الأرض التي هي وعاء إنتاجي فحسب، هذا بجانب تجاهل أية جوانب أو أبعاد أخرى للمرأة .

¹⁰ . Zainab Bahrani: Women of Babylon, p.46.

ولعل أهم ما يعبر عن عبادة الإلهة الأنثى هو وجود دمي أنثوية متعددة انتشرت في أماكن كثيرة ضمن هذه الحقبة، لكنها كانت غير واضحة الملامح، غائبة الشخصية^(**)، رُكِّزَ فيها على أعضاء جنسية معينة للتعبير عن قوى التكاثر الإنساني. اشتهرت من ضمنها ثلاثة نماذج^(***) أعطت "فكرة جديدة عن انتباهة دينية خاصة بالتكاثر والولادة عند الإنسان وارتباط ذلك بالأعضاء الجنسية الباذخة لدى المرأة، بوصفها مصدرًا لإنتاج النوع البشري" ⁽¹¹⁾

لم يظهر التمثيل الذكوري بجانب الربة الأم لم يظهر إلا بشكل طفيف جدًا في العصر الباليوليتي، ولم يظهر فيه الرجل بشكله الكامل المعروف. وحتى بعدما ظهر بعد ذلك في العصر الحجري النحاسي، عصر العبيد (4500-3500 ق.م)، كان ظهوره مصحوبًا بصورة طفل حديث الولادة، ولكنه لم يكن لهما رمزية مستقلة بعينها، بل كان "الرمزان الجديدان يجسدان الإنجاب والتكاثر اللذين يرتبطان بالخصوبة، ولم يحمل الرمزية نفسها التي تحملها الربة الأم، لكنهما لا يرقيان إلى درجتها ومكانتها، فلربة الأم مكانتها الأكثر تميزًا لأنها هي المنجبة والمرضعة والمربية"⁽¹²⁾.

ومن ثمَّ فقد كان للمرأة حظٌّ على مستوى السياسات و تشريع القوانين و نظام الحكم في بعض الحضارات^(*)، وكانت محورًا وملنقى لكل سبل الحياة في ظل نظام جعل المرأة هي البداية والنهاية التي تؤول إليها الأمور كافة؛ إذ تُعدُّ الصورة

^(**) هذا على عكس دمي ورسومات عشتار بعد ذلك والتي كان لها ملامح وإشارات ورموز تميزها عن غيرها من الآلهة.
^(***) مثل إلهة لاوسيل The goddess of Laussel. في منطقة لاوسيل في جنوب فرنسا، التي جاء وجهها بدون أي ملامح مع التركيز على إظهار البطن الممتلئ، والأرداف الكبيرة. وكذلك إلهة ليسبوغ The goddess of Lespugue في فرنسا، التي كانت هي الأخرى دون ملامح للوجه مع تضخيم الوسط المنتفخ. وأيضًا إلهة ويلندروف The goddess of Willendorf في جنوب النمسا، وقد رُكِّزَ فيها على البطن البارز، مع إظهار الأرداف والأثداء بشكل كبير.

خزعل الماجدي: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص 45-48.

¹¹ . خزعل الماجدي: مرجع سابق، ص 48.

¹² . إحسان عبد الحق: الخصوبة المقدسة في عصور ما قبل التاريخ: من الباليوليت الأعلى إلى نهاية العصر الحجري النحاسي (من 35000 إلى 3600 ق.م)، مجلة جامعة دمشق، المجلد 34، العدد الأول، 2018، ص 139.

^(*) " كانت النساء في الشرق الأوسط ومصر في العصور القديمة يتمتعن بحقوق قانونية وبحريات اجتماعية أفضل مما كانت تتمتع به شقيقاتهن في بلاد الإغريق وروما. وعندما حكمت السلالات الهلنستية التي ورثت الإسكندر المقدوني مصر وبلاد الشرق الأوسط، كانت النساء اللاتي انتقلن للعيش في المنطقة المذكورة يفضلن الزواج حسب القوانين المحلية، وليس حسب القوانين الإغريقية. لأن الأولى أكثر صرامة في حماية حقوق النساء واستقلاليتهم إذ كان بإمكانهن تقرير شؤونهن الحياتية وأنشطتهن. كما كان باستطاعتهم حيازة الممتلكات والمراكز الاجتماعية".

زينب البحرائي: نساء بابل: الجندر والتمثيلات في بلاد بين النهرين، ترجمة مها حسن بجوب، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2013، مقدمة الطبعة العربية، ص1.

الأولى والأصلية للمجتمعات الإنسانية، أي صورة المجتمع الأمومي (***) Matriarchy والعائلة الأمومية، وهذا على خلاف المعتقد السائد بأن العائلة بشكلها الأبوي اليوم هي الصورة الأولى والوحيدة للمجتمعات الإنسانية، فأصول الحضارة الإنسانية وبدائيات التجمع الإنساني الأول لم تعتمد على قيم الذكورة وسلطة الأب والرجل، بل على قيم الأنوثة وسلطة الأم، ففي ظل "المجتمع الأمومي أسلم الرجل القيادة للمرأة، لا لتفوقها الجسدي، بل لتقدير أصيل وعميق لخصائصها الإنسانية، وقواها الروحية، و قدراتها الخالقة، و إيقاع جسدها المتوافق مع إيقاع الطبيعة" (13).

بالإضافة إلى أن هذه الفترة لم يكن لدى الإنسان - أو الرجل بشكل خاص - أي تفسير مقنع عما يحدث للمرأة من تغييرات بيولوجية مثل: الحمل والولادة والحيض، فكل هذه الأمور غير المفهومة وقتذاك، أحاطت المرأة بهالة من الرهبة والخوف من هذه القوى الغريبة، التي كانت أيضاً سبباً في ربطها بالطبيعة أو الأرض. وقد كان "الخوف من المرأة والغموض الذي أحاط بأمومتها بالنسبة للرجل لا يقل إثارة للإعجاب عن الخوف الذي يكتنف قوى وأسرار عالم الطبيعة ذاته، الأمر الذي انعكس على تاريخ الأسطورة (*) ومختلف الطقوس، والتي تزخر بأمنثلة لا حصر لها عن

(**) المجتمع الأمومي Matriarchy: يكون المجتمع أبويًا حين ينسب الأولاد للأب وعائلة الأب، وكذلك حين ينحصر الميراث والملكية على عائلة الأب، وتقتصر الخلافة على مرتبة الذكور من عائلة الأب وأقاربه. وعلى العكس يكون المجتمع أموميًا حين يكون النسب والميراث والخلافة متعلق بنسب الأم. وبعد الزواج - في هذا النظام - ينتقل الزوج إلى منزل الزوجة، وتكون السلطة على الأطفال مملوكة من قبل الأم وأقاربها. وقد ظهر هذا المفهوم الثنائي الأبوية والأمومية لأول مرة في أواخر النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد كان له على الفور تأثيرٌ هائلٌ على العلماء والدارسين في هذا العصر. فالمحللون النفسيون - بعد يقين فرويد الشغوف بانتقال المجتمع من النظام الأمومي للأبوية - كانوا مقتنعين بأنهم في ظل هذا النموذج التطوري قد وجدوا تأكيداً لنظرياتهم فيما يتعلق بتطور العلاقة الأساسية للطفل: في البداية مع الأم وبعد ذلك مع الأب فقط "إلا أنه قد ظهر للمرة الأولى مصطلح مجتمع حكم النساء Geneococratic عند أرسطو. ولكنه لم يكن يعني به أي شكل مؤسسي لسلطة الأنثى، فلم يتخطى معناه بالنسبة له القول بانتشار الجنس الأنثوي في مجال أو قطاع معين، بل على العكس قد حذر من خطر حكم النساء على الدولة، فهو يرى أن هيمنة النساء في المساكن وقلة الانضباط بين العبيد يشكلان انحرافاً عن الديمقراطية نحو الاستبداد".

Michael A, petro: Mother's Primary in Anthropology and Psychoanalysis, Rom J Psychoanal, 12, Hellenic Psychoanalytical Society, 2019, p.71.

¹³ . فراس سواح : لغز عشثار، مرجع سابق، ص32.

(*) الأسطورة Myth : جمعها أساطير. والأساطير هي الأباطيل كما جاء في لسان العرب، وهي أيضاً أحاديث لا نظام لها كما يقول ابن منظور. أما المعاجم الأجنبية فلم تفرق بين الأسطورة والميثولوجيا، بل عُدَّتْها من العلم الحديث ولم تصبح دراسة علمية بالمعنى الصحيح إلا في أوائل القرن التاسع عشر. ويبدو أن أصل الكلمة اليوناني Metos أسهم إلى حد كبير في تمحور الأسطورة حول الفكر الديني. فلقد بدت الأسطورة من وجهة النظر هذه، قصة أو مجموعة من القصص تروي أفعال الآلهة أو مغامرات الأسلاف البطولية. بالنسبة لمالينوفسكي Malinoveski فقد حلَّتْ الأسطورة بالنسبة له في المركز الثالث في سلم الأولويات الإنسانية. وقد عُدَّها فرويد كالأحلام (ظاهرة مرضية) حاملة للرموز يتمركز معناها في اللاوعي، ولمعرفة معناها لا بد من البحث عنه في الماضي البعيد. وقد بدأ في عصر التنوير في القرن الثامن عشر النقد العلمي للأساطير بوصفها وسيلة لخداع الناس ، ولذلك تعامل هذا العصر مع الأسطورة

الجهود المستمرة التي يبذلها (الرجل/الذكر) في سبيل الدفاع المعادي لهاتين القوتين الغربيتين اللتين تربطان المرأة والعالم بشكل وثيق " (14) (**).

ولكن لا بد من إيضاح أنه مع كون هذه الدمى جزءاً من العقيدة الدينية للتعبير عن الخصوبة، فإنها لم تكن قد تطرقت بعد للتعبير عن الخصوبة الكونية، أي خصوبة الإنسان والطبيعة، كما هو الحال بعد ذلك مع دمي بلاد الرافدين Mesopotamia ، كما سنوضح فيما يلي.

ثانياً- الألوهة المؤنثة في بلاد الرافدين

تميز الأدب الأسطوري في العراق القديم بالغرابة والثراء والتنوع. عبّر عن الحياة الدينية لمجتمع بلاد الرافدين من خلال مناقشة العديد من الموضوعات التي ترتبط بمختلف نواحي الحياة، كما عبّر عن نظرتهم للآلهة، والكون، وعن مصائرهم وأقدارهم. موضوعات لم تكن بالنسبة إليهم خرافات، أو مجرد أدب روائي للاستمتاع، بل كانت عندهم أكثر من ذلك بكثير، لأنها لم تدون على يد أناس عاديين أو هواة

بوصفها معادية للعقل ومنافية له. هذا على عكس موقف كلود ليفي ستراوس Levi Strauss . c. ، منها الذي حاول تأسيس الأسطورة على ركائز حقيقية من خلال البحث عن المعنى الحقيقي الكامن وراء المعنى الظاهري. معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، ط1، المجلد الأول الاصطلاحات والمفاهيم، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، 1986، ص 69-68.

14 . Joseph Campbell; the Masks of God; Primitive Mythology, Secker&Waburg, London, U.K, 1960, PP. 59-60.

(**) وقد كان هذا هو السبب في الانتقال للعصر الأبوي أو المرحلة الأبوية، التي يتم التعامل معها بوصفها المرحلة الأعلى تطوراً في شكل المجتمعات الإنسانية، وأقربها للكمال الإنساني. إذ فُيْتَر الانتقال من العصر الأمومي إلى العصر الأبوي بوصفه شكلاً من أشكال تطور الحياة والأسرة البشرية، تطوراً لا يخضع للإنثوغرافيا Ethnography - التي هي علم وصف الشعوب ودراستها، ينصب على دراسة المظاهر المادية للنشاط الإنساني، من عادات وتقاليد (كالمأكل والمشرب والملبس) - ، ولم يُعبّر عنه من خلال نمو جسدي أو تراكي للعقل الإنساني، ولكنه يُعد " تجسيداً للأفكار الأساسية التي تكشفت وازدهرت في نقاط محددة في الزمان والمكان، ولكن تم تصميمها داخل جدل ديالكتيكي جنسي عام، ينتقل فيه الإنسان تدريجياً من مفهوم (الطبيعة) إلى = مفهوم (الثقافة)، من هيمنة المادية: (المنحنى الأرضي)، إلى هيمنة الروحانية: (المنحنى السمائي)". والمقصود بهيمنة المادية والمنحنى الأرضي، هو هيمنة المرأة في العصور القديمة وهيمنة الثقافة الأمومية. أما عن الروحانية والمنحنى السمائي، فالمقصود بها هيمنة الثقافة الأبوية التي لا ترتبط بالأرض أو بما هو مادي بل على العكس ترتبط بالعقل والثقافة. ولعل هذا الربط السائد هو الذريعة الأساسية في الهيمنة الذكورية على كل من المرأة و الأرض أو الطبيعة و استغلال كل منهما دون مراعاة لحقوقهما أو خصوصيتهما. وهو ما عبّر عنه جوهان جاكوب باكوفن J.J. Bachofen ، الذي يُعد الأب الروحي لنظرية حق الأم، إذ أكد على أن المجتمع الأمومي هو المصدر والشكل الأول للمجتمعات البشرية والدين والأخلاق، وهو ما وضح في كتابه الأسطورة، الدين وحق الأم Myth, Religion, and Mother Right (1976).

George. Stocking، JR: Review of Myth ،Religion ،and Mother Right، University of Chicago, Selected Writings of J .J .Bachofen. Translated and adapted by Ralph Manheim from Mutterrecht und Urreligion, 1 ST Ed .Rudolf Marx, 1926, pp. 1188-1189.

للكتابة، بل كتبها الكهنة الذين كانت لهم المرتبة الأعلى في مجتمع دولة المدينة الناشئة مع بداية الحضارة المدنية في جنوب بلاد الرافدين" (15).

ومن أبرز الموضوعات التي ناقشتها أساطيرهم موضوع خصوبة الأرض ودورة الحياة فيها. ولهذا ارتبطت المعتقدات الدينية وصور الآلهة في حضارة بلاد الرافدين بالبيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان بشكل وثيق، ليست بلاد الرافدين فحسب، بل كل حضارات العالم القديم: ذلك "أن مظاهر الطبيعة هي أول ما استرعى انتباه الإنسان الأول ودهشته عند نظرتة إلى الكون، ولشدة نفوذها وتأثيرها في نفسه نبهت فيه فكرة الدين، فعبد بذلك الطبيعة" (16).

وقد تميزت بلاد الرافدين بطبيعة صعبة؛ وعرة ومتقلبة، فمن "الخصائص الطبيعية لهذه البلاد، أنها شديدة الحرارة صيفاً، مع وجود الفيضانات المدمرة شتاءً، هذا بجانب إصابتها بالجفاف الذي يحدث من آن لآخر، مع انتشار الأوبئة والجراد، الذي يصيب المنطقة بأضرار فادحة" (17). ولم يكن لدى الإنسان حينها أي وسيلة فعلية، أو واقعية لمجابهة هذه الظواهر، مما جعله يؤمن بوجود قوى عليا تتحكم فيها، عليه أن يكسبها في صفه لاستمرار الحياة. من هنا تركّز الاعتقاد الديني لدي السومريين حول آلهة الطبيعة، واتصلت أساطيرهم بالعناصر الطبيعية التي اعتمد تفسيرها على فهم العلاقة بين الإنسان والطبيعة، حيث مثّلت انعكاساً لاحتياجات الإنسان في ذلك الوقت، "وقد أدرك الإنسان منذ عصورٍ قديمة حقيقة أن بقاءه مرهون بشيئين اثنين؛ أولهما: الغذاء؛ لذلك أوجد الإلهة الأم (Mother Goddess) التي جسدت قوى الطبيعة المولدة والمنتجة والمخصبة، وهي القوى الأكثر تأثيراً في حياة الأقبام القديمة، ففضل تلك القوى كان التكاثر والإنجاب، يضمن للإنسان استمرار جنسه وتفوقه على قوى التدمير المميتة من الأوبئة والحوادث الطبيعية" (18). ولذلك فقد كان لخصب الطبيعة أهمية بالغة بالنسبة للإنسان، حيث احتلت حيزاً كبيراً من معتقداته وممارساته السحرية.

¹⁵ . خالد عبد الملك النوري: الأسطورة في بلاد الرافدين، من الأسطورة، تحرير بدر رحيم الديحاني وآخرون، عالم الفكر، المجلد 40، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2012، ص 112-113.

¹⁶ . طه الهاشمي: تاريخ الأديان وفلسفتها، دارمكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1963، ص 72.

¹⁷ . هاشم عبودي الموسوي: موسوعة الحضارات القديمة، دارمكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2013، ص 109.

¹⁸ . قتيبة أحمد سليمان: عقائد الخصب في حضارتي بلاد الرافدين ووادي النيل: دراسة مقارنة، أطروحة غير منشورة لنيل درجة الماجستير، كلية التربية، جامعة واسط، قسم التاريخ، 2010، ص 19-20.

ومن هنا جاءت نماذج الإلهة الأم لتعكس ارتباط الإنسان بالطبيعة التي تلبى احتياجاته، وتضمن شروط بقائه واستمرار حياته. ولهذا كانت عبادة الخصوبة، أو فكرة الخصوبة هي جوهر المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين. وكانت "خصوبة الأرض متضامنة مع الخصوبة النسوية" (19).

وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن الكثير من الأساليب التي اتبعها الإنسان القديم للتعبير عن هذه العبادة، فتنوعت ما بين رسومات، ومنحوتات جدارية، وأيضاً صناعة الدُمى. وقد تنوعت هذه الرسومات والدُمى؛ فبعضها جاء على هيئة نساء عاريات للتركيز على مواطن الخصوبة، وبعضها الآخر أظهر المرأة في وضع الولادة للتعبير عن عملية الإنتاج والعطاء، في حين ركز بعضهم على الأعضاء التناسلية من خلال تصويرها وهي مستقلة عن الجسد بسبب رمزيتها الكبرى في الخصوبة والإنتاج؛ ولهذا جاءت هذه الأعمال الفنية غير واقعية بشكل كبير، "حيث ضُخِّمَت فيها – وبشكل مبالغ – الأماكن التي تشير إلى الخصوبة؛ كالثديين والأرداف والفخذين والبطن، وأهمِّلت فيها أعضاء أخرى؛ مثل: الرأس الذي لم تظهر ملامحه بشكل جيد، والساقين القصيرتين الملتصقتين إحداهما بالأخرى أحياناً، والقدمين المدببتين أو المبتورتين في بعض الأحيان" (20).

وعلى الرغم من أن عبادة الخصوبة كانت معروفة منذ العصر الحجري بشقيه الباليوليتي Paleolithic الأوروبي والنيوليتي Neolithic في الشرق الأدنى، فإن هذه العبادة لم تظهر بشكل واضح ومحدد إلا في العصر النيوليتي في بلاد الرافدين شمالاً. حيث لم يُوجَّه التركيز على أهمية الاقتران بين المرأة ووظيفتها في الحمل والوضع وإنجاب النسل، وبين الأرض وخصوبتها وإنتاجها بشكل واضح وصريح إلا مع بداية العصر النيوليتي بوصفه نتيجة لظهور الاقتصاد الزراعي agricultural economics، فلم تكن القداسة النسوية والأمومة مجهولة في العصر الباليوليتي، ولكن اكتشاف الزراعة أظهر أهميتها وقوتها بشكل ملحوظ؛ حيث "وجد الإنسان في المرأة البدنية المعافاة الخصيية الحامل رديفًا للأرض الخصبة المثمرة، والمرأة كما هو معروف مكتشفة الزراعة وحافظة البذور؛ ولذلك رفعها إلى مرتبة الألوهية... وأصبحت

¹⁹ . ميرسيا إلباد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، داردمشق، سوريا، 1986، ص 59.

²⁰ . إحسان عبد الحق: الخصوبة المقدسة في عصور ما قبل التاريخ، مرجع سابق، ص 132.

الإلهة الأم لاحقاً تبدو وكأنها سبب في إخصاب الأرض في العقيدة الدينية⁽²¹⁾. من هنا جاءت صورة الأرض بوصفها " الأم الأولى التي انبثق منها كل الأحياء من بشر وحيوان ونبات، وبوصفها النموذج الأمومي الأول الذي نتج عنه - فيما بعد - كل تكرار لفعل الأمومة، فإنجاب الأطفال، وتوالد النباتات أمور هي في جوهرها تقليد لفعل الإنجاب الأول الذي قامت به الأم الكبرى وتكرر له، وخصوبة النساء ليست إلا قبساً من الخصوبة الكونية المتمثلة في الأرض - الأم⁽²²⁾.

لهذا " كان مفهوم الأرض - كأم حامل ومغذية - بارزاً للغاية في أساطير مجتمعات الصيد والزراعة على حد سواء. فبالنسبة لتصور الصيادين؛ تأتي الفرائس والطرائد التي يصطادونها من رحم الأم. وكذلك الأمر بالنسبة للمزارعين؛ حيث تتم زراعة الحبوب في جسم الأم، وبعد ذلك تُعبر عملية حرث الأرض ونمو الحبوب عن الإنجاب والولادة. علاوة على ذلك، فكرة الأرض بصفتها أمًا يُدْفَن الإنسان فيها بعد موته، تعبر عن العودة مرة أخرى إلى حضن الأم ورحمها من أجل ولادة جديدة⁽²³⁾. هذا وقد انعكس تأليه الأم على الحياة الاجتماعية، فأصبحت المرأة زعيمة القوم وكان لا بد أن تتصف بصفات الأرض ذاتها من الخصوبة و القوة والصحة؛ لأنها تناظر الإلهة الأم.

وخير تعبير عن نموذج الإلهة الأنثى في حضارة بلاد الرافدين هو الإلهة "عشتار" Ishtar^(*)، أو "إنانا" Inanna و كلتاهما مرادفتان لاسم إلهة واحدة، وما الاختلاف في الأسماء إلا اختلاف في المراحل وفي الثقافات التي توالدت على مجتمعات الآلهة في بلاد الرافدين^(**)، "فحين تبنى البابليون والآشوريون الكثير من آلهة البانثيون السومري، ظهرت الآلهة تحت أسماء سامية في الميثولوجيا الأكادية، "فإنانا" أصبحت

²¹ . خزعل الماجدي: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص 82.

²² . فراس سواح: مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة- سوريا وبلاد الرافدين، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، 1994، ص 310.

²³ . Joseph Campbell; the Masks of God; Primitive Mythology, Ibid, P. 66.

^(*) تُعدّ عشتار: Ishtar, Ashtar, Istar: في أساطير الشرق القديم الإلهة الأم العظيمة التي تُعبد في أرجاء الشرق القديم، وهي نفسها الإلهة إشتار، وعشتروت، والإلهة اليونانية أفروديت، والرومانية فينوس. كانت عشتار واحدة من أكثر إلهات الشرق شعبية في مجمع الآلهة، فقد كانت إلهة الخصب والنماء، بنى لها معابد، فهي راعية الخصوبة في النبات والحيوان والبشر.

إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت، ص 132.

^(**) كان يسمى مجمع الآلهة في ثقافة بلاد الرافدين (الأوناي)، على غرار البانثيون عند اليونان والرومان.

كارم محمود عزيز: أساطير العالم القديم، مكتبة الناظفة، القاهرة، 2006، ص 172.

عشتار⁽²⁴⁾، والأسماء والمصطلحات في ديانة بلاد الرافدين كُتبت بلغتين؛ السومرية والآكادية. ولكن "تُعَدُّ" عشتار " – على الأرجح – أكثر الآلهة أهمية وتأثيرًا ضمن إلهات الشرق الأدنى القديم؛ إذ إن صيتها وشهرتها تستحوذ على نظيرتها السومرية "إنانا"⁽²⁵⁾.

كان لـ "عشتار" ملحمة من أشهر الملاحم في أدب بلاد الرافدين، وهي ملحمة نزولها إلى العالم السفلي، وقد اختلفت الأسباب حول هذا النزول، ولكن ما يهم هنا هو النتيجة التي ترتبت على نزول "عشتار" وتركها للعالم العلوي وللحياة فوق الأرض. "فمع غياب "عشتار" توقفت عملية التناسل على سطح الأرض، على مستوى عالم الإنسان وكافة المخلوقات الطبيعية"⁽²⁶⁾. "ولم يكن هناك خصوبة على سطح الأرض، سواء عند الحيوان أو الإنسان"⁽²⁷⁾، وبنزولها انقطعت الخصوبة عن عالم الإنسان والطبيعة على حد سواء، فهي سيدة الأرض وإلهة للخصوبة Fertility Goddess. "ولأنها إلهة الخصب، بما في ذلك نمو الزرع وكثرة المحاصيل، فقد رسمها الفنانون القدامى على بعض من الأختام الأسطورية وهي تجلس على كومة من الحبوب، أو تمسك بالمحراث"⁽²⁸⁾.

"عشتار" إلهة الخصب والجنس معًا، من خلالها تستمر الحياة، أي حياة الإنسان والطبيعة على حد سواء. حتى فسّر تغير الفصول بموت "عشتار" ونزولها للعالم السفلي، عالم الموتى. ومن الجدير بالذكر أنه "على الرغم من أن "إنانا" لا تُعَدُّ إلهةً أمًّا، فإنها تُعَدُّ الأولى ضمن سلسلة طويلة من الآلهة المؤنثة المعروفة تاريخيًا، والتي تهتم بخصوبة العالم الطبيعي"⁽²⁹⁾. إلا أن هذا الأمر يثير تساؤلًا مهمًا؛ وهو لماذا تم التركيز على وظيفة الخصوبة بالنسبة للإلهة "عشتار"، مع التأكيد على عدم كونها أمًّا؟ إن الإجابة عن مثل هذا التساؤل تبين الإصرار على التجاهل المقصود للسمات المتعددة للإلهة الأنثى، وتقليص دورها في كونها الأم الخصيب فحسب.

ولابد هنا من إيضاح أنه، "لم تكن "إنانا" و "عشتار" الصورتين الوحيدتين اللتين انحلت إليهما صورة الأم السورية الكبرى في وادي الرافدين، ولكنهما كانتا الصورتين

24 . S.H. Hook; Middle Eastern Mythology, p.38.

25. Michael Jordan: Dictionary of Gods and Goddess, Second ED, Facts and Fills, Inc. p.143.

26 . Manfred Luker: the Routledge Dictionary of Gods and Goddess, Devils and Demons, Routledge, London, 2004, P.91.

27 . Charles Penglase: Greek Myths and Mesopotamia, Routledge, London, 2005, p. 23.

²⁸ . فاضل عبد الواحد على: عشتار ومأساة تموز، الأهلي للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 1999، ص 33.

29. Michael Jordan: Dictionary of Gods and Goddess, p.137.

الوحيدتين اللتين كان لهما ديانة منظمة ومعابد وعباد، أما بقية الصور فبقيت صوراً
ميثولوجية لا تلعب دوراً فعلياً في الديانة والأساطير الاعتقادية⁽³⁰⁾.

ويمكن القول إن عبادة "عشتار" بوصفها نموذجاً للألوهة المؤنثة والخصوبة قد
امتدت بعد ذلك إلى الكثير من الحضارات والثقافات، فأصبحت مثالاً للإلهة الأم
بشكل عام، وأينما جاء موضعٌ للحديث عن الألوهة المؤنثة لا بد وأن تُذكر "عشتار".
وبجانب تأكيد المنظور الجسدي أو المادي في تصوير الألوهة المؤنثة، هناك
حقيقة أخرى تتبدى لنا من خلال عرض هذه الأساطير، حيث كشفت لنا عن ترتيبات
هرمية في مجتمعات الآلهة، التي اشتملت على إلهات أنثى دون أن تكون أمّاً ولوداً،
ولكنها هُمِّسَتْ، و تتم تهميش قدراتها في مقابل التركيز على الإلهة الأم، أو الأرض
الأم. كذلك فإن معظم نماذج الإلهة الأم كان لها قدرات وإمكانات أخرى بجانب
قدرتها الإنجابية، وحُجِبَتْ قسراً في مقابل التركيز على وظيفة الخصوبة، لذلك فقد
كانت عبادة الإلهة الأم ترادفاً لعبادة الخصوبة Fertility Cult كما ذكرنا من قبل.

وهو ما أشارت إليه إليزابيث دودسون جراي Elizabeth Dodson Gray (1929-
2022)^(*)، التي أكدت أن أساطير الخلق الدينية القديمة كانت في الوقت ذاته
بطريكية وذات نزعة طبيعية، ونشير هنا إلى نموذج "إنانا"، "عشتار" والتي كانت
تتمتع بالكثير من القوى الهائلة، "ولكن في البانثيون الذي تسيطر عليه الآلهة الذكور.
فقد كان تصنيفها بوصفها إلهة للخصوبة يميل إلى إخفاء طبيعتها المعقدة؛ إذ كانت
تتحكم في الكثير من العناصر، سواء كانت طبيعية أو ثقافية والتي كانت مهمة
بالنسبة للمجتمع السومري، من بينها العواصف والأمطار، ومستودع الحصاد،
والحرب، ونجوم الصبح والمساء، والحب الجنسي. كما كانت إنانا أساسية للحفاظ على
خصوبة الأرض وازدهارها"⁽³¹⁾.

³⁰ . فراس سواح: لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، ص 53.

^(*) إليزابيث دودسون جراي: عالمة لاهوت وكاتبة ومتمدنة وناشطة نسوية بيئية أمريكية، ولدت في بالتيمور بالولايات المتحدة الأمريكية
عام 1929 . وهي من أوائل مفكرات النسوية البيئية اللواتي درسن الأدوار التي يلعبها الخيال الجنسي والديني في التراث البطريكي
اليهودي والمسيحي والتقاليد الفكرية الغربية. خلال السبعينيات والثمانينيات، درست مع زوجها ديفيد جراي في كلية سلون
للإدارة بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. حصلت على بكالوريوس من كلية سميث سنة 1951 بالإضافة إلى شهادة بكالوريوس
من جامعة ييل سنة 1954. وكانت عضواً في نادي جمعية الولايات المتحدة في روما (1979-1982).

31 . Johanna H. Stucekey: Ancient Mother Goddesses, and Fertility Cults, Journal of the Association for Research on Mothering, Vol. 7,
Number 1, p.35.

و من هنا "يعتقد الكثير من مفكري الإيكولوجيا النسوية أن الجذر الرئيس للأزمة البيئية هو البطيريركية (النظام الأبوي): تلك البنية الاجتماعية الجائرة التي تسوغ استغلال النساء والطبيعة، إذ تُعَدُّها في مرتبة أدنى من الرجال، وفي بعض الحالات يشير مفكرو الإيكولوجيا النسوية إلى أن التراتيبية الجائرة عمومًا هي المسؤولة عن السلوك الاستغلالي، سواء كان هذا السلوك موجّهًا نحو النساء والطبقات الدنيا أو نحو الحيوانات أو المنظومات البيئية" (32). وهو ما أشارت إليه "إليزابيث" في كتابها (الفردوس الأخضر المفقود Green Paradise Lost) والذي صدر لأول مرة عام 1979، والذي أكدت فيه على أن النظام الهرمي يقوم على حقيقة، تؤكد أنه: "كلما ارتفعت إلى الأعلى، اقتربت إلى السماء وإلى كل ما هو روحاني، وفي الاتجاه المضاد، حينما تهبط إلى أسفل، تتجه إلى الشر، إلى الحميم، إلى العالم السفلي، إلى الألم والعقاب و العذاب، وإلى المكان حيث يرتكز كل ما هو مادي، وغير روحاني، أي كل ما يتم تعريفه بأنه شر" (33).

ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الربط يمثل حجبًا أوبويًا قصريًا متعمدًا لتنوع وظائف المرأة قديمًا، أو للإلهة ولطبيعة سلطاتهما. وتكمن المشكلة في هذا الحجب، في أن تجاهل الأدلة التي أنتجتها حضارة ما، والتي تعبر عن وجود حضور نسوي في الثقافة الدينية، يحول دون الوصول لفهم كامل وحقيقي عن هذه الثقافة؛ فتجاهل جزء من ثقافة ما يستبعد معه تفاصيل كثيرة عن هذه الثقافة.

ومن ثمّ، لا بد من الإشارة إلى أن هذا الحجب الأبوي القسري قد اتخذ شكلًا رسميًا. ولم يقتصر فحسب على مستوى الأسطورة؛ إذ انقسم الدين قديمًا إلى: الدين الرسمي للدولة، و هو دين النخبة، و الديانة الشعبية، أو الممارسات الدينية للشعب العادي، وقد عدّ العلماء أن الولاءات الروحية للمرأة Women's Spiritual Devotions تندرج تحت فئة الدين الشعبي أو " الممارسات الشعبية بوصفها شكلًا من أشكال الدين الفاسدة، على الرغم من أنها كانت الطريقة التي تقوم عليها العبادة عند غالبية الناس، حيث وضع العلماء ممارسات عبادة الخصوبة في فئة الدين الشعبي" (34).

32 . مايكل زيمرمان (محرر) : الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ترجمة معين شفيق روميه، ج 1، العدد 332، أكتوبر 2006، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 19-20.

33 . Elizabeth Dodson Gray; Green Paradise Lost, First Ed, Round Table Press, Massachusetts, 1979, p.4.

34 . Johanna H. Stuckey: Ancient Mother Goddesses, p.33.

إذا قامت أساطير بلاد الرافدين على التركيز على الجانب الطبيعي في عبادة الإلهة الأم، أو بالأحرى، الجانب المادي المتمثل في الخصوبة الجسدية، فالسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو: هل أكملت الميثولوجيا المصرية القديمة هذه المسيرة؟ أم كان لنموذج الألوهة المؤنثة - في ظل هذه الأساطير - أبعاد أخرى تم التركيز عليها، دون الاقتصار على الجانب المادي الجسدي العضوي فحسب؟ هذا ما سيتبين فيما يلي من خلال عرض نموذج "إيزيس"، بوصفها واحدًا من أهم النماذج الأنثوية للطبيعة، ليس في الثقافة المصرية فحسب، ولكن على مستوى الفكر الإيكولوجي والنسوي والعلمي على حد سواء.

ثالثاً - إيزيس وتأنيث الطبيعة

تميزت المرأة والطبيعة - على حد سواء - بالاحترام في ظل الحضارة المصرية القديمة، فقد "كانت المرأة المصرية تتمتع بحقوق مساوية للرجال. وذلك بعكس ما كان عليه الحال في معظم الدول القديمة، مثل اليونان أو الرومان. ومع أن هذه الحقيقة تُعدُّ أمرًا غير مألوف بالنسبة لأوضاع الشرق، فإننا نجد لها منعكسة بوضوح تام في الوثائق والكتابات، وكذلك في الأعمال الفنية"⁽³⁵⁾ (*). وقد شمل هذا التقدير كافة المجالات؛ الاجتماعية والسياسية وكذلك الدينية. وشمل أيضًا مجمع الآلهة المصري

³⁵ . محمد فياض: المرأة المصرية القديمة، دار الشروق، القاهرة، 1995، ص 17.

(*) انصب التركيز على الأم أكثر من الأب عند ذكر النسب، ولم يتغير هذا الوضع المتميز للمرأة إلا مع بداية العصر البطلمي عندما أخذت الأفكار والعادات الوافدة وبخاصة اليونانية منها تعمل في ببطء على زحزحة القانون المصري. وقد وجد في حفائر الجبانات أن المرأة كان لها الحق في أن تدفن في مقبرة خاصة بها مثل الرجل، مع وجود القرابين المناسبة والتماثيل والشواهد. وكذلك كان لها حق قانوني كامل يتعلق بحريتها في إدارة أعمالها الخاصة. كما كانت تستطيع إبرام العقود بجميع أنواعها، وأن تكون شاهدة على عقود الزواج، وأن تكتب الوصايا، وأن تمنح العبيد حريتهم، أو أن تتبنى أي شخص. وكذلك لها الحق في أن تمتلك وتتصرف في الضياع والخدم والعبيد والمال والأشياء الثمينة بحرية واستقلال تامين. بل وكان للمرأة المصرية أيضًا الحق في أن تتقدم إلى المحكمة النظامية بشكوى أو أن ترفع دعوى فيها. وهذا على عكس القانون اليوناني تمامًا لم تكن المرأة المصرية محتاجة إلى وصي لتنفيذ أية أفعال قانونية. وجدير بالذكر أيضًا أن المرأة المصرية كان لها الحرية في التصرف في ميراثها، وكانت تستطيع حرمان أي من أولادها منه إن شاءت.

محمد فياض: المرجع نفسه، ص 18-20.

على الكثير من الإلهات التي تنوعت صفاتها وأدوارها. ومع تنوع نماذج الإلهات المصرية تُعدّ "إيزيس" أكثر نموذج محبب ومفضل للأُم الإلهية الرئيسة في حضارات البحر الأبيض المتوسط القديمة، فقد تميزت بقدرتها على العلاج والشفاء، وكانت بطلاً للعدالة، وتجسيداً للحكمة الإلهية والفلسفة. فقد عُرفت "إيزيس" باسم الأم العالمية Universal Mother. وقد كانت قادرة على أداء المعجزات باستخدام كلمات القوة، فمن خلال كلماتها؛ (كلمات القوة)، أعادت زوجها - ومن ثمّ جميع الرجال - إلى الحياة".⁽³⁶⁾

ولهذا صُوِّرت تماثيل الإلهة الأنثى كأبهي سيدة للطبيعة في تاريخ مصر القديمة تحت اسم "إيزيس". ويظهر زوجها أوزيريس إلى جانبها أختاً وزوجاً وحببياً وشريكاً في خصائص الخصب، وإلهة أسيراً لدورة القمح والإنبات. فهي سيدة القمح، وأول من اكتشف الزراعة، وسيدة الخبز وحقل القمح⁽³⁷⁾.

وتُعدّ أسطورة "إيزيس"، و"أوزيريس" من أشهر الأساطير التي توضح مدى عظمة قوى الإلهة إيزيس، وتُبرر تلك المكانة العالمية التي اتخذتها هذه الإلهة من بين الآلهة. وتتخلص الأسطورة في الغيرة القائلة التي أحس بها "ست" أخو "إيزيس" و"أوزيريس" حينما جعل الإله "رع" "أوزيريس" ملكاً على مصر، بينما كان يرغب "ست" في هذا المنصب. فظل "ست" يخطط للإطاحة بأخيه، حتى حانت له الفرصة في غياب "إيزيس" في رحلة قصيرة. فصنع صندوقاً مُزيئاً بأجمل الزينة على شكل تابوت على حجم "أوزيريس" بالضبط و أقام حفلةً، ودعى إليها الكثير من الضيوف، ومنهم "أوزيريس" ذاته، وأعلن أنه من سيناسب الصندوق حجه سيأخذه هدية، وبالطبع لم يسع إلا أخاه "أوزيريس"، والذي انخدع وفرح به، فأغلق عليه "ست" الصندوق وصب عليه الرصاص، و ألقاه في النيل. وبعد عودة "إيزيس" صعقت مما حدث، وظلت تبحث عن الصندوق حتى وصلت إلى مدينة تسمى "ببيلوس" في بلاد فلسطين. فأخذته بعد رحلة من الأحداث و عادت به إلى مصر. و لكن عثر عليه "ست" مرة أخرى فأخرج جسد أخيه من الصندوق وقطعه إلى قطع صغيرة و نثرها في أجزاء عدة متفرقة في مصر. إلا أن "إيزيس" لم تستسلم أيضاً هذه المرة، وظلت تبحث

³⁶ . Elizabeth Clare Prophet: Mary Magdalene and the Divine Feminism, Summit University Press, Gardiner, Montana, 2005, P.35.

ديسمبر. 2017. ص 96.

37 . نوال بورحله: مكانة المرأة في الحضارات. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر. العدد 31.

طويلاً عن هذه الأجزاء حتى جمعتهما، وبقواها السحرية استطاعت أن تبعث "أوزيريس" وتقهّر الموت، و في هذه الليلة حملت بآبئهما "حورس" (38).

وإذا ذهبنا وراء البعد الديني والبعد التاريخي لهذه الأسطورة، سيتبين لنا - من خلال المنظور الفلسفي لها - أن الصراع ما بين "ست" و "أوزيريس" هو صراع للسيطرة على الأرض والطبيعة، بين قوى الشر والتدمير المتمثلة في "ست"، وبين قوى الخصوبة والإنماء والإنتاج المتمثلة في "أوزيريس"، فقد مثّل أوزيريس "النيل المخصب بتربته المخضرة الوافرة للإنتاج؛ أي رمز للإخصاب. وكان "ست" ممثلاً للصحراء القاحلة برمآلها المحمرة، وأعاصيرها الثائرة المهلكة، فهو رمز العقم" (39). أما "إيزيس" فهي الحامي للحياة (*)، بل وباعتها، هي الراعي لقوى الخصوبة والإنتاج، لهذا فإن "إيزيس" تمثل في الميثولوجيا المصرية سهول مصر الغنية التي أصبحت مثمرة بفضل فيضان النيل السنوي الذي هو "أوزيريس". أما "ست" الصحراء القاحلة، بمؤامراته تلك التي أراد بها أن يفصل بينهما" (40).

ولكن لم تقف الأسطورة عند هذا الحد، ولم تنته الأبعاد الفلسفية لها، حيث امتدت رحلة الحماية والرعاية والحب والعطاء من قبل "إيزيس" لـ "حورس" ابئهما، وسارت في رحلة طويلة تتسم بالشقاء والصعوبة والغربة، في سبيل حماية ابئها "حورس" من انتقام "ست" منه. وقد أودعها الإله "رع" سبعة عقارب لحمايتها. فالتمست "إيزيس" من إحدى نساء القرى التي مرت عليها مساعدة و طلباً للطعام والشرب، ولكن المرأة أبت خوفاً من العقارب التي كانت مع إيزيس و غلقت في وجهها الأبواب. ولكن ساعدتها ابنة صياد فقير. و لكن العقارب لم تنس تلك المرأة الجاحدة، فتسلل أحدهم إلى غرفتها و صب سمه على ابئها انتقاماً منها. ففزعت المرأة و هلعت طلباً للمساعدة، و لكن لم ينجدها أحد من أهالي القرية. و لم يفتح في وجهها إلا باب واحد؛ هو باب "إيزيس" الربة الحامية، الشافية، الراعية،

³⁸ . دون ناردو : الأساطير المصرية، ترجمة أحمد السرساوي، مراجعة وتعليق علاء الدين شاهين، المركز القومي للترجمة، العدد (1848)، القاهرة، 2011، ص 43-48.

³⁹ . مجدي كامل : أشهر الأساطير في التاريخ، دار الكتاب العربي، دمشق- القاهرة، 2014، ص 138.

(*) هذا ما أكدته أساطير عصور ما قبل الكتابة، والتي سادت فيها الثقافة الأمومية بما تشمله من قيم أنثوية تدعو إلى السلام، والرعاية، والمحبة، والحفاظ على الحياة.

⁴⁰ . ج . فيود: ديانة مصر القديمة: مجمع هيلوبوليس وعائلة أوزيريس، ترجمة فاروق الهاشم وفراس سواح ، موسوعة تاريخ الأديان: الشرق القديم، تحرير فراس سواح، الكتاب الثاني، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 2017، ص 53.

والحنون التي أبت أن تترك طفل هذه المرأة دون مساعدة، فألقت عليه بعض التعاويذ السحرية و بالفعل شَفَى الطفلُ.

إن نموذج "إيزيس" بوصفها ربة أو إلهة أمًا، يعبر عن نماذج الآلهة النساء كافة في الأساطير على اختلافها. فهي الربة واهبة الحياة، و حاميتها، الحنون المعطاءة والتي مهما أسِيءَ إليها لا تتوقف عن العطاء. تمامًا كالطبيعة الخصبة المعطاءة، و التي مهما خرب فيها الإنسان لا تتوقف عن إذهاله بعطاياها وهباتها. بهذا يمكن القول: إن نموذج "إيزيس" بوصفها إلهة أمًا لم يقتصر على قوى الخصوبة فحسب، ولم يَنْصَبَ التركيز على جانبها الجسدي المادي فحسب في الأسطورة، بل على العكس تمامًا احتُرِمَت "إيزيس" وعُبدتْ كأمٍ عالمية في مصر، و في الكثير من بلاد العالم مثل: اليونان و الرومان، وذلك من خلال قواها المتعددة العقلية و الروحية والجسدية، على حد سواء.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن تركيز الأسطورة على الجانب العضوي والجسدي للمرأة لم ينطبق على الثقافات كافة، إذ تُعدُّ إيزيس من أكثر الأمثلة عن الإلهات^(*) التي لم تقتصر وظيفتها على الخصوبة فحسب، فقد أكدت الدراسات التاريخية أن "إيزيس" تمتلك عذرية تامة، حتى أن أسطورة إيزيس وطفلها "حورس" كانت تسير جنبًا إلى جنب مع قصة "السيدة مريم العذراء" وابنها نبي الله "عيسى"، حتى أن بعض الآباء المسيحيين المصريين أعطوا لقب العذراء أو أم الإله للسيدة مريم، هذا اللقب الذي تُوجِّت به "إيزيس" قديمًا⁽⁴¹⁾. هذا بجانب التركيز على الكثير من القوى المختلفة لـ "إيزيس" كما سبقت الإشارة. وأيضًا، فإن كل ما يتعلق بها من تماثيل، أو نقوش، ورسومات لم تُعْرَضْ فيها "إيزيس" وهي عارية أبدًا. ولعل هذا الأمر يعكس الثقافة المصرية القديمة؛ والتي كانت تحظى فيها المرأة المصرية باحترام كبير أكثر من الثقافات اليونانية أو الرومانية، أو في الديانة اليهودية، فقد كانت الحقوق القانونية للمرأة مساوية لحقوق الرجل من الطبقة الاجتماعية ذاتها، وعلى عكس النساء

(*) هناك أيضًا إلهة معات: وهي "معبودة مصرية، معنى الاسم - المستقيم -، وهي إلهة القانون والنظام التي تجعل الشمس تطلع كل يوم في مكانها وزمانها وهنا الحقيقة والصالح والعاقل والثابت، اشتركت مع الإله بتاح وتوت وخنيمو في فعل الخلق". حسن نعمه: موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1994، ص 271.

⁴¹ . A Wallis Budge; Gods of the Egyptian or Studies in Egyptian Mythology, Vol.1, Methuen & Co London, U.K, 1904, Preface xvi.

اليونانيات أو اليهود، سُمِحَ للمرأة المصرية وخصوصًا الملكات للظهور علنًا مع أزواجهن⁽⁴²⁾.

وما يجب الإشارة إليه، أن نموذج إيزيس بوصفها تعبيرًا أنثوي عن الطبيعة لم يقتصر الاهتمام به على الثقافات الشرقية، أو ثقافات البحر الأبيض المتوسط فحسب، بل امتد ليصبح من أهم النماذج الرمزية عن الطبيعة في الأوساط العلمية، وكذلك في فلسفة البيئة النسوية، ليس عند "ميرشانت" فحسب، بل أيضًا عند غيرها من مؤرخي وفلاسفة العلم. وهو ما سيتم عرضه بالتفصيل في الفصل الثاني من الرسالة.

وإذا كانت "إيزيس" من أبرز الرموز التشبيهية للطبيعة التي اهتمت الأساطير القديمة بعرضها، لبيان مدى أهميتها للتعبير عن مكانة كل من المرأة والطبيعة في ظل الثقافة المصرية القديمة. فذلك نموذج "جايا"، يُعدُّ من الرموز المهمة على العديد من المستويات، سواء الميثولوجيا اليونانية، أو حتى على المستوى العلمي. وفي السطور القادمة سيتم عرض أسطورة "جايا" اليونانية للتعرف على طبيعتها وأهميتها بوصفها تعبيرًا عن الحضور النسوي في الثقافة اليونانية. في حين سيتم التركيز على الأبعاد الفلسفية والرمزية لهذا النموذج النسوي في الفصل الثاني من الرسالة.

42. Elizabeth Clare Prophet; Mary Magdalene and the Divine Feminism, Ibid, p.35

رابعاً- النسوية الوثنية في الأساطير اليونانية

انتشرت عبادة الإلهة الأنثى في مناطق واسعة و حضارات عدة (*)، حيث عبرت عن قوة الخصوبة في الطبيعة. ومصطلح الإلهة الأم Mother Goddess يُعدّ تجسيداً للطبيعة و لفضل الأرض على الإنسان، و لكن على هيئة أنثى. و إسقاطاً للنموذج الأنثوي على الطبيعة. و هو ما زخرت به الأساطير اليونانية، وخاصةً أساطير الخلق. كانت "جايا" Gaia هي أول الآلهة التي عرفها اليونان، و تُعدّ تعبيراً عن العبادة المبكرة لخصوبة الأرض Early Worship of Earth's Fecundity.

1. جايا و أسطورة الخلق اليونانية

"جايا" (*) - وفقاً لأسطورة الخلق اليونانية - إلهة الأرض، وهي أول الآلهة البدائية التي عرفها اليونان، وهي أيضاً أول إلهة جاءت بعد الفوضى chaos (*). وكثيراً ما صُوِّرت بوصفها إلهة للخصوبة على الكثير من الأضرحة في أجزاء كثيرة من اليونان⁽⁴³⁾، ففي البداية لم يكن موجوداً سوى الخواء الكوني السرمدي، المظلم

(*) على الرغم من عبادة الطبيعة الأنثى في بلاد اليونان، فإنه لم يكن للمرأة في الحياة الواقعية تلك القيمة التي أحرزتها الألوهة المؤنثة، أو حتى المكانة نفسها للمرأة في ثقافات أخرى؛ مثل: الحضارة المصرية القديمة، " فعندما نتصفح تاريخ المرأة الإغريقية، ندرك أنها كانت مسلوحة الحرية والإرادة، وذلك في كل ما يرجع إلى الحقوق الشرعية وفق نظامهم وتشريعاتهم، وأيضاً في كل ما يخص المرأة من حقوق وواجبات".
باسم كياتي : تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981، ص 32.

فقد كانت "النساء في المجتمع اليوناني ومعهن العبيد من أهم الفئات التي انحصرت داخل القاعات الخاصة، فأماكن الخطاب السياسي العامة كانت مقتصرة على المواطنين الذكور وحدهم، لا للنساء ولا للعبيد. وقد كان ذلك قائماً في أثينا وأسرطة في آن واحدٍ معاً".

إمام عبد الفتاح إمام: أفلاطون والمرأة، سلسلة الفيلسوف والمرأة، 1، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص 17-18.

وقد كان للفلاسفة اليونان نصيب الأسد من ازدياد المرأة وتحقيرها والتقليل من شأنها. فيها هو أرسطو يؤكد عدم قدرة المرأة على ممارسة الفضائل الأخلاقية المختلفة على نحو ما يفعله الرجل، وكذلك على عدم قدرتها على شغل أي منصب اجتماعي أو ثقافي أو حتى قيادة المنزل. إن مهمتها تقتصر فقط على الإنجاب، بل وتحمل المسؤولية كلها إذا أنجبت أنثى. والرجل فقط ينجب الذكر. فالطبيعة لا تنجب الإناث إلا إذا انحرفت عن مسارها الصحيح.

إمام عبد الفتاح إمام: أرسطو والمرأة، سلسلة الفيلسوف والمرأة، 2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص 8-9.

(*) (جايا): Gea, Gaia, Ga : الأرض الأم، وهي إلهة عظيمة في الميثولوجيا اليونانية، خرجت من العماء Chaos الذي ساد الكون في البداية. وانتشرت عبادتها في منطقة أتিকা وعاصمتها أثينا على وجه الخصوص. وكان للإلهة (جايا) عرافة في معبد دلفي في فترة سابقة على كهانة الإله (أبوللو). وقد تحولت في العصر الهليني إلى الإلهة (ديمتر) Demeter إلهة القمح.

إمام عبد الفتاح إمام: مرجع سابق، ص 23.

(*) Chaos كاوس: إن كلمة كاوس تعني الظلام والفراغ بلا حدود، وهو كل ما كان موجوداً قبل خلق الكون، فهو الإله الذي يُجسد المكان غير المحدود، والمادة التي لا شكل لها والتي سبقت الخلق".

حسن نعمه : موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، مرجع سابق، ص 258.

⁴³ Jenny march: Cassel's Dictionary of Classical Mythology, Cassel &Co, London, U.K, 2001, PP.324-326.

واللامحدود، وكان مصدر الحياة يكمن فيه. فكل شيء ظهر من الخواء الكوني اللامحدود - العالم كله، والآلهة الخالدون - ومن الخواء الكوني جاءت إلهة الأرض، "جايا" أو "جيا"، وقد امتدت واسعة جبارة تهب الحياة لكل من يعيش أو ينمو عليها⁽⁴⁴⁾.

وتسمى "جايا" أيضاً Ge، و منها اشتقت كلمات مثل الجيولوجيا Geology والجغرافيا Geography. و يُطلق عليها الأدب الأوروبي Orphic literature اسم الأم البدائية Primordial⁽⁴⁵⁾. فهي الأرض الأم التي نشأت منها كل أشكال الحياة، وإليها أيضاً تعود كل الكائنات.

وعلى الرغم من وجود الكثير من نماذج الألوهة المؤنثة في اليونان، "فالإلهة الوحيدة ذات الملامح الجلية المعالم هي "جايا"، الأرض. ووفقاً لـ "هزيود"س يبدو أن "جايا" التي تتبثق منها الأشياء كلها، كانت في الغالب أعظم آلهة اليونان القدامى. وهذا ما تؤكدته الترتيلة الهومرية التي يقول فيها الشاعر: "سأغني عن جايا، الأم الكونية، الراسخة القدمين، وأقدم الآلهة"⁽⁴⁶⁾.

"جايا" هي سبب الحياة ليس على الأرض فحسب، بل هي منبع الحياة للكوكب بأكمله؛ فقد أنجبت بكرها أورانوس، أي "السماء المزينة بالنجوم" وجعلته مساوياً لها في العظمة بحيث يغطيها بالكامل، ثم خلقت الجبال الشاهقة، وبونتيوس البحر العميق بأمواجه المتناغمة"⁽⁴⁷⁾. إلا أن قدرة "جايا" الكلية لم تقف عند حد خلق الكون فحسب، فهي التي أنجبت السلالة الأولى من الآلهة وكذلك سلالة البشر. وأيضاً كان لها قدرة كبيرة على التنبؤ بالمستقبل.

إذاً كانت جايا هي تشبيهاً رمزياً وتصويراً روحياً للأرض، فهي تُعدُّ كذلك تأكيداً على الوحدة العضوية لهذه الأرض؛ فلم تعبر عن جزء من المنظومة الحيوية فحسب؛ بل عبرت كذلك عن الحياة ككل على سطح الأرض. ومن ثم فهذه الأسطورة تتعامل مع الأرض بوصفها وحدة تتسم بالانسجام و التوازن الكلي فيما بينها. فالطبيعة الأم تشفي جميع أشكال الحياة على هذا الكوكب و تغذيها و تدعمها. ومن ثم فإن أي ضرر يلحق

⁴⁴ . مجدي كامل: أشهر الأساطير في التاريخ، ص 29.

45 . Bron R. Taylor (editor); The Encyclopedia of Religion and Nature, first Ed, vol. 1, Thoennes continuum, London, 2005, p.679.

⁴⁶ . ف جيوراند: الآلهة والأساطير اليونانية، ترجمة أسامة منزلي، موسوعة تاريخ الأديان؛ اليونان وأوروبا قبل المسيحية، الكتاب الثالث، تحرير فراس سواح، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، 2017، ص 35.

⁴⁷ . ف جيوراند: المرجع نفسه، ص33.

بأي جزء من هذه المنظومة يؤثر في نهاية المطاف في هذه الوحدة العضوية، (الأرض). من هنا كان احترام الطبيعة ككل، كناية عن التقديس و العبودية للأرض الأم. وكما كان في الماضي يتم التعامل مع الإلهة "جايا" بقداسة، كذلك لابد أن يتم التعامل مع الأرض بوصفها مكانًا مقدسًا، أي جزءًا من خلق الله له حرمة و قدسيته. وهو ما يقودنا إلى الحديث عن فرضية "جايا" العلمية Gaia Hypothesis، والتي تُعدُّ إحياءً لهذه الأسطورة، ولكن في ثوبٍ علميٍّ معاصر.

2. فرضية "جايا" العلمية

غابت أسطورة "جايا" بوصفها كناية عن الأرض الأم لفترة طويلة، حتى استُعيد الوعي بهذه الأسطورة مرة أخرى في المرحلة المعاصرة - حوالي عام (1969) - على يد عالم الفيزياء و المخترع جيمس لافلوك (1919 - 2022) James Lovelock (*). حين جادل بأن الأرض يُمكنُ فهمُها - بشكل أفضل - بوصفها كائنًا حيًا، و أن كل ما بالأرض من جبال و بحار و سحب و أشجار و حيوانات و بشر، كلهم أجزاء مكونة لهذا الكائن الحي الأكبر، (الأرض) "جايا" بحيث تدخل هذه الأجزاء في علاقات تأثير و تآثر، علاقات تداخل معقدة. فالأرض بالنسبة "للافلوك" هي جسم الكائن الحي، حيث يمكن مقارنة تبادل الغازات الكوكبية في الغلاف الجوي مع التنفس الفردي، ونظام المياه بتدفق الدم، و طبقة الأوزون بالجلد⁽⁴⁸⁾.

(*) جيمس لوفلوك : عالم الفيزياء الشهير، ألف أكثر من 200 ورقة علمية. ومؤلف فرضية جايا (نظرية جايا الآن). وقد كتب ثلاثة كتب حول هذا الموضوع، منها: [جايا] نظرة جديدة عن الحياة على الأرض Gaia: A New Look at Life on Earth ، عصور جايا The Ages of Gaia ، و جايا: العلوم العملية لطب الكواكب Gaia: The Practical Science of Planetary Medicine ، وكذلك السيرة الذاتية ، تحية إلى جايا. كان لوفلوك زميلًا في الجمعية الملكية منذ عام 1974. وعمل منذ عام 1961 بوصفه عالمًا مستقلًا تمامًا. ولكن احتفظ بصلاته مع جامعات في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. ومنذ عام 1994 كان زميلًا فخريًا زائرًا للكلية الخضراء في جامعة أكسفورد. وُصف بأنه "واحد من أكبر المفكرين في عصرنا" (مجلة نيو ساينتست) و "واحدٌ من أكثر الشخصيات المؤثرة في الحركة البيئية" (مجلة الأوبزرفر). في عام 2003 حصل على لقب رفيق الشرف من قبل صاحبة الجلالة الملكة ، وفي سبتمبر من عام 2005 صنفته مجلة بروسبكت بوصفه واحدًا من أفضل مائة عالم مفكر في العالم.

James Lovelock: The Revenge of Gaia; Why the Earth is Fighting Back, and How Can we Still Save Humanity, Beguine Books, London, U.K, 2006, iii.

وقد انتخب عضوًا في المجتمع الملكي عام 1974، وكان الأول في حصوله على جائزة أمستردام للبيئة من قِبَل الأكاديمية الملكية الهولندية للآداب والعلوم عام 1990. هذا بالإضافة إلى حصوله على الكثير من الجوائز من ضمنها جائزة نونينو Nonino Prize و جائزة فولفي للبيئة the Volve Environmental Prize عام 1996. وكذلك جائزة كوكب اليابان الأزرق عام 1997. وفي عام 1990 حصل على وسام CBE قائد الإمبراطورية البريطانية من جلالته الملكة .

James Lovelock; Gaia; A new Look at Life in Earth, Oxford University Press, 2000, p.3.

48. Bron R. Taylor (editor); The Encyclopedia of Religion and Nature, p.679.

وردود الأفعال و الآثار الرجعية هذه تؤثر في النهاية في الأرض ذاتها، ومن ثم في الإنسان نفسه؛ إذ تعتمد رفاهية الإنسان وحياته على أرض سليمة وعلى كوكب صحي، حيث، "يتصرف نظام الأرض بوصفه نظاماً فردياً ذاتي التنظيم، يتكون من عناصر فيزيائية وكيميائية وبيولوجية وإنسانية، وتُعدُّ ردود الأفعال و الآثار الرجعية بين هذه العناصر المكونة معقدة، وتُظهر تقلبات زمنية و مكانية متعددة النطاق"⁽⁴⁹⁾.

أكد "لافلاك" أن الأرض هي أكبر كائن حي في النظام الشمسي؛ إذ يستجيب بشكل كامل للتغيرات التي نجريها - نحن البشر - ، فهي حية بقدر ما لها من قدرة على التكيف مع المتغيرات المحيطة بها، وبقدر ما لها من قدرة على التجدد. و بهذا تفقد الأرض للحياة وتصبح ميتة حين تفقد هذه القدرة على التكيف والتجدد. فبما مضى كانت الأرض قوية وشابة استطاعت مقاومة التغيرات السلبية التي لحقت بها، و كذلك مقاومة ارتفاع درجات الحرارة بها. أما الآن، فقد أصبحت أقل مرونة، فتزايد الممارسات السلبية من قبل العنصر الإنساني أخلت بالتجدد الذاتي للأرض، و بالتوازن الطبيعي لها، و مع هذا لن تقف "جايا" مكتوفة الأيدي، لكنها ستعود لتنتقم. وكانت هذه الفكرة الرئيسة لكتاب "لافلاك"، والتي اشتق منها عنوان كتابه

(انتقام جايا The Revenge of Gaia)

وقد تعامل "لافلاك" مع الأرض بوصفها كائناً حياً و ليس آلة كبرى. و لعل هذه الرؤية غير الميكانيكية للأرض Non Mechanical Vision of the Earth هي الرؤية نفسها التي ستطرحها "كارولين ميرشانت" Carolyn Merchant (1936 – 2019)⁽⁵⁰⁾ فيما بعد، حيث تُعد (ميرشانت) من ألد أعداء النظرة الميكانيكية الآلية للأرض، وهو ما سيتبين فيما بعد، أثناء الدراسة.

49 . James Lovelock: *The Revenge of Gaia*, xiv.

^(*) كارولين ميرشانت: أستاذ التاريخ البيئي والفلسفة والأخلاق بجامعة كاليفورنيا، بيركلي. ولدت في 12 يوليو 1936 في مدينة "روتشستر" بنيويورك بعد انفصال والديها وهي في عمر الثامنة. وقد تولت والديها رعايتها بكل قوة وصبر، واتبعت خطى والديها فالتحقت بكلية فاسار Vassar بأمریکا. حيث درست الكيمياء وكذلك الفلسفة. وبعد عام من التخرج عملت في مجال الفيزياء في جامعة بنسلفانيا، ثم اتجهت بعد ذلك إلى جامعة ويسكونسن حيث حصلت على الماجستير والدكتوراه في مجال تاريخ العلوم. ولكن بعد انفصالها عن زوجها الأول في عام 1976 انتقلت مع ولديها لتقطن مع شقيقتها في بيركلي وقضت عشرة أعوام في جامعة سان فرانسيسكو في تدريس تاريخ العلوم. وفي 1979 تم التعاقد معها لتدريس التاريخ البيئي في بيركلي، وتم ذلك في العام السابق لنشرها لكتابتها الأول "موت الطبيعة" *The Death of Nature* والذي أُعْتُبِرَ آنذاك من أكثر الكتب تأثيراً في العديد من المجالات: التاريخ البيئي، و الفلسفة والقضية النسوية.

وتمثلت البداية عند "ميرشانت" فيما يخص الاهتمام بالقضايا البيئية من خلال كتاب "الربيع الصامت" *Silent Spring* 1962 للعالمة "راشيل كارسون" Rachel Carson، فكان بالنسبة لها مرحلة فاصلة للتفكير في خطورة الأزمات البيئية وتأثيرها سلبيًا على الطبيعة وعلى التنوع الحيوي. أما بداية اهتمامها بالقضايا النسوية فقد بدأ في العام التالي من قراءتها لكتاب "بني

الخاتمة

من خلال عرض الأساطير المختلفة للكثير من المجتمعات الإنسانية، والتي تمحورت حول الألوهة المؤنثة، وعبادة الإلهة الأم، أو الطبيعة الأم، تبين ما يلي:

إن إضفاء صفة الأمومة على الطبيعة يحمل في طياته معاني الاحترام والتقدير، وإذا كنا قد لمسنا هذا التقدير في الحضارات القديمة، فلم يكن له أي صدى في الحضارات الحديثة والمعاصرة. وإذا كانت عبادة الإنسان القديم للطبيعة في صورتها (كالهة أم) عمِلَ على احترام الطبيعة والمرأة على حد سواء، فإن هذا الأمر لم يمنع الإنسان الحديث من انتهاك حقوق كل من الطبيعة والمرأة على حد سواء. هذا بجانب أن الربط بين الطبيعة والمرأة، وإقران كل منهما بوظائف مادية وجسدية تتمثل في النسل والإنتاج، مثل زريعة للسيطرة و الهيمنة على كل منهما، مثل التأكيد على أن كل ما هو مادي هو في درجة أدنى، ولا بد من السيطرة عليه و التحكم فيه من قبل كل ما هو أعلى، أي كل ما هو عقلي و ذكوري وخاص بالرجال، كما أن ارتباط المرأة بالأرض وبوصفها كناية لها ولقواها أبعدها عن الجنة، بل وجعلها سبباً في سقوط الإنسان منها Fall of Man.

فريدمان " Betty Freidan " اللغز الأنثوي" The Feminine Mystique 1963. ولكن الربط بين هاتين الحركتين لم يتم إلا في السبعينيات، وذلك في يوم قمة الأرض عام 1975. وقد اهتمت في دراساتها البيئية بدور الرموز التشبيهية للطبيعة، ودور الأيديولوجيات المختلفة في التأثير على البيئة، وقد رأت أنه إذا كنا قد عايشنا فترات طويلة من التوجه الفكري السليبي المهيمن = على الطبيعة، والذي على إثره جاءت الممارسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مؤيدة لفكرة السيطرة على الطبيعة واستغلالها؛ فنحن قادرين بتغيير هذه الأيديولوجيات والوعي الاجتماعي بتغيير الممارسات، وتوجيه المستقبل نحو شراكة مستدامة مع العالم الطبيعي، والارتقاء بكوكبنا الأرضي.

ومن أهم مؤلفاتها: **موت الطبيعة: النساء، البيئة، والثورة العلمية** (1980). **الثورات البيئية: الطبيعة والجنس والعلوم في نيو إنغلاند** (1989) (الطبعة الثانية 2010). **علم البيئة الراديكالية: البحث عن عالم صالح للعيش** (1992) (الطبعة الثانية 2005). **رعاية الأرض: المرأة والبيئة** (1996). **إعادة اختراع عدن: مصير الطبيعة في الثقافة الغربية** (2003) (الطبعة الثانية 2013). **الطبيعة المستقلة: مشكلات التنبؤ والتحكم من العصور القديمة إلى الثورة العلمية** (2016). **المشكلات الرئسية في تاريخ البيئة الأمريكية: (1993) (الطبعة الثانية 2005) (الطبعة الثالثة 2011). وقد حررت كتاب بعنوان: المفاهيم الأساسية في النظرية النقدية والبيئة: (1994) (الطبعة الثانية 2008). ومحرك مشارك، مع "شبيرد كريتش" الثالث و"جون ماكنيل" موسوعة التاريخ البيئي العالمي: 3 مجلدات (2004). وقد تولت منصب رئيس سابق للجمعية الأمريكية للتاريخ البيئي، هذا بجانب العمل في المجالس التنفيذية والاستشارية لجمعية تاريخ العلوم والتاريخ البيئي وأخلاقيات البيئة، بالمجلة الدولية للغابات البيئية، والتنظيم والبيئة، ورابطة دراسة الأدب والبيئة. هذا بالإضافة إلى العديد من المقالات حول تاريخ العلوم والتاريخ البيئي والمرأة والبيئة.**

لمزيد من التفصيل:

Russell Schoch; Carolyn Merchant, Contents, California Monthly, the Magazine of the California Alumni Association, June, 2002, Vol.112, No.6, pp. 27-30

وأيضاً موقع جامعة بيركلي:

<https://ourenvironment.berkeley.edu/people/carolyn-merchant>

50 - Kenneth Worthy and others ; After the Death of Nature ; Carolyn Merchant and the Future of Human – Nature Relations, Routledge, New York, 2019, p.20.

Representation of Femininity في العصر القديم

فقد ارتبط تمثيل الأنوثة في العصر القديم بالجنس Gender، ذلك لأن النظرة الأساسية للمرأة تعتمد على البعد البيولوجي وليس العقلي، حيث تم التعامل مع النساء منذ العصور القديمة وحتى العصر الحديث من خلال أجسادهن. ولهذا فإن معظم هذه الأساطير أوضحت الجوانب العضوية في تمثيل الإلهة الأم؛ فكان التركيز على الأعضاء الأنثوية للمرأة، وجُسدت الإلهات عارية لإبراز هذه الأعضاء، مع تجاهل أية قدرات عقلية أو ثقافية للمرأة وللإلهة الأم، لكنّه من المنصف القول إنه على الرغم من التأكيد على الجانب المادي وعلى جسد الإلهة الأنثى، فإن ذلك لم يكن بهدف الإمتاع والتسلية، ولكن بهدف التركيز على الطبيعة الوظيفية لها؛ وهي الخصوبة والإنجاب^(*).

ويمكن توضيح حقيقة مهمة بشأن مادية هذه العصور في التعبير عن فكرة الألوهة؛ وهو أن مادية النموذج الأصلي والبدائي للإلهة الأم يحمل في طياته بُعدين أيديولوجيين: أول هذه الأبعاد يعبر عن طبيعة هذه العصور، التي اعتمدت على المادة في المقام الأول، وهو أمر طبيعي للغاية يتفق مع ظروف هذا العصر ولا ينتقص من قيمته. ويعبر البعد الآخر لهذه المادية عن وجود عبء فكري و تطبيقي لازم كل من الطبيعة و المرأة على حد سواء، وكان سبباً في ظهور أفكار وفلسفات بل وممارسات قمعية تتسم بالعنف و التملك و الدونية تجاه كل منهما. وعلى الرغم من التطور في المنظومة القيمية والأخلاقية و الفكرية ككل، فإن الإنسان الحديث والمعاصر ما زال أسيراً لمادية هذه العصور، التي كان من الأولى أن تنتهي بانتهائها، مع مراعاة أن مادية هذه العصور تجاه كل الطبيعة و المرأة لم يسفر عنها سلوك تطبيقي أو فكر يتسم بالهيمنة و السيطرة عليهما، بل على العكس تماماً اتسم بالاحترام والتقدير وانفرادهما بمكانة مميزة من التجليل.

هذا بجانب أن النموذج المادي للإلهة الأم في هذه الحقبة الزمنية تضمن قيمة روحانية في النفس البشرية سواء كانت حبا للعطاء اللامحدود لكل من الأم والطبيعة على حد سواء، أو حتى خوفاً من غضبهما. في الحالتين اشتمل البعد المادي على قيمة نفسية وروحانية لم تتضمن بأي شكل من الأشكال الرغبة في الهيمنة أو السيطرة عليهما. وقد تعامل الإنسان القديم مع الطبيعة ومع الإلهة الأم بصفته ابناً محباً ليس

(*) وهذا ما يسي بعملية التفشير الجسدي أو الجنسي للمرأة، أي إقصائها عن أنوثتها وشبهوات جسدها، وهو ما يعمد إليه مُنشئو الأساطير. ناقلين المرأة من محض لاحيقيا الجسدية إلى استقلالية مميزة تشبه إزالة الغبار عن كائن مركون ومبمش لكي يتجلي إلى ما يؤمله لي تبيؤاً منزلة تعادل منزلة الآلهة النك و .

لديه أي خيار لمقابلة هذا الكم من العطاء والرعاية والحماية من كليهما إلا بالاحترام والتقدير. حتى إذ أظهرت له الطبيعة أو الإلهة الأم نوعاً من أنواع الغضب أو السخط فلا يستطيع مقابلة هذا الغضب بغضب مثله أو بعنف وعدوان، بل على العكس يبذل كل ما في وسعه لإرضاء هذه الطبيعة الغاضبة، ورفع سخط الإلهة الأم. فقديمًا كان امتناع الأرض أو الأم عن العطاء لا يقابل بشعور من الكراهية، وهو ما اختلف بشكل جذري بدءًا من العصر الحديث، فأصبحت الطبيعة الغاضبة أمًا وامرأة سيئة لا نشعر تجاهها إلا بكراهية تترجم في أرض الواقع بقسوة ورغبة في الهيمنة والإخضاع. هذا بجانب أنه حين مُنِّتَت المرأة في العصور القديمة بصورة عارية مع إبراز أجزاء معينة من جسدها، كان هذا بهدف التعبير عن عبادة الطبيعة في هذا النموذج، حيث مثل كل من المرأة والطبيعة السبب الرئيس للحياة على الأرض، وضمناً لعملية الغذاء والتكاثر.

كذلك فإن شعور الإنسان ورد فعله تجاه عملية خصوبة كل من الطبيعة والمرأة وكونهما سبباً في الحياة، وكذلك دور المرأة في رعاية الأطفال وإطعامهم واستمرار إمدادهم بالحياة، اختلف بشكل كبير بين المجتمعات الأمومية قديماً، التي تعاملت مع هذه العملية بنوع من التبجيل والتقديس والرغبة في الوقت نفسه، وبين المجتمعات الأبوية التي عدت هذه العملية برمتها لا تتعدى كونها أمراً طبيعياً جداً ينم عن خصائص كل من الطبيعة والمرأة. فإرادة القوة في التعامل مع المرأة و الطبيعة لم يكن له حيز في المجتمعات الأمومية، فالحضور الأنثوي في مجتمعات الآلهة القديمة لم يدخل ضمن نطاق مصفوفة علاقات القوة والسيطرة، وهو ما اختلف بدءاً من النصوص التوراتية والتي جعلت العلاقة بين الرجل والمرأة وبين الإنسان والطبيعة علاقة صراع على حيازة القوة والسيطرة.

وهو ما يذكرنا بما ألقاه التراث العبري لـ "حواء" باتهامها بغواية "آدم" وإقناعه بالأكل من الشجرة المحرمة، فقد جعلها السبب الأول في سقوط الإنسان من الجنة، وسبباً أيضاً في معاناته على الأرض.^(*) وهو ما انعكس على وضع المرأة والطبيعة

(*) وهذا ما نجده في العهد القديم والنصوص التوراتية في سفر التكوين، وخاصة في النصوص المتعلقة بسقوط آدم من جنة عدن. التي توضح كيف أن حواء والحية قد اشتركتا في غواية آدم للأكل من شجرة المعرفة حتى كُشِفَتْ عوراتهما وعوقبا بالسقوط من جنة عدن، وذلك بعد الحوار الذي دار بداية بين الحية وحواء، حين قالت لها: "أحقاً قال الله: لا تأكلا من جميع شجر الجنة؟" فقالت المرأة للحية: "من ثمر شجر الجنة تأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسأه لنلا تموتا". فقالت الحية للمرأة: "لن تموتا، ولكن الله يعرف أنكما يوم تأكلا من ثمر تلك الشجرة تفتح أعينكما وتصيران مثل

على حد سواء، إذ أكَّدتْ النصوص التوراتية أن كلا من المرأة والأرض أو الطبيعة يحملان في طبيئتهما شراً عظيماً تجاه الرجل وعليه الحذر منهما والسيادة عليهما. وهو ما جاءت الإيكولوجيا النسوية بالضبط لرفضه ومعالجته. وبهذا يمكن القول إن النص التوراتي يُعدُّ هو نهاية العصر الأمومي.

وتأكيداً على الطبيعة المنفردة للبعد المادي والجسدي للحضارات القديمة نشير إلى أن العصر الأمومي لم تتم تسميته بهذا الاسم لتفرد المرأة فيه بالقيادة فحسب، بل لأنه لم تتركز فيه النظرة للمرأة وخصوصاً في الأساطير على الجانب الجسدي الشهواني فحسب، فقد تعاملت الأساطير الشعبية القديمة مع المرأة بشكل عام ومع الآلهة المؤنثة بشكل خاص وفق مكانتها الواقعية الطبيعية، فأسبغوا عليها من الصفات والأدوار ما تقتضيه هذه الطبيعة، فألحقوا بها العطاء والحماية والحب والرعاية والخصوبة والشفاء. وهو على نقيض المؤسسات الكهنوتية بدءاً بالنصوص التوراتية، التي حرّضت على سجن المرأة في حدودها الجسدية والشهوانية، ومن ثمَّ إلحاق الكثير من الصفات بها، التي انبثقت بدورها من هذه الطبيعة التي ألحقوها بها، فوسموها بالتدنيس والتحریم والمكر الجنسي والغواية.

بهذا الرأي برروا الاتجاه لكبح جماح هذه الشهوات والسيطرة عليها وإخضاعها. وهو ما انعكس بدوره على الطبيعة، فهي ليست أكثر من امرأة لها من الجموح والغدر والمكر ما يستدعي الهيمنة عليها وإخضاعها هي الأخرى لرغبات الرجل.

الله تعرفان الخير والشر". ورأت المرأة أن الشجرة طيبة للمأكول وشبيهة للعين، وأنها باعثة للفهم، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضاً، وكان معها فأكل. فانفتحت أعينهما فعرفا أنهما عريانان ، فخاطبا من ورق التين وصنعا لهما مأزر. ومن هنا يتبين كيف أن آدم برئ كل البراءة من هذه الخطيئة، خطيئة عصيان أوامر الله، وأن حواء هي السبب في هذه المعصية. وذلك حين خاطب الله آدم وسأله عن سبب اختيائه منه ، واكتشافه أنه أكل من الشجرة. فكانت إجابة آدم، " المرأة التي أعطيتني لتكون معي هي التي أعطيتني من الشجرة فأكلت". ومن هنا حلت اللعنة على آدم وحواء وسقطا من جنة عدن وكان لكل مهما عقوبة حتى الحياة. فكانت عقوبة حواء عقوبة جسدية مادية وكذلك معنوية، وذلك حين قال الله لها: "أزيد تعبك حين تحلين، وبالأوجاع تلدين البنين، إلى زوجك يكون اشتياقك، وهو عليك يسود". ولا بد هنا من الإشارة إلى أن عقوبة حواء كانت جراء معصيتها لأوامر الله وتحريضها لادم للأكل من الشجرة. هذا على خلاف خطيئة آدم والتي تمثلت في سماع كلام حواء، فقال الله لادم: " لأنك سمعت كلام امرأتك، فأكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها تكون الأرض ملعونة بسببك، بكذلك تأكل طعامك منها طول أيام حياتك. شوگا وعوسجاً تنبت لك، ومن عشب الحقل تققات. يعرق جبينك تأكل خبزك، حتى تعود إلى الأرض، لأنك منها أخذت. فأنت تراب، وإلى التراب تعود". ويمتد بعد ذلك عداء الإنسان مع الأرض بعد قتل قابيل لهابيل ودفنه له في الأرض، أو كما جاء في النصوص قابيل. ليخاطبه الله قائلاً: " ماذا فعلت؟ دم أخيك يصرخ إلي من الأرض. والان فملعون أنت من الأرض التي فتحت فمها لتقبل دم أخيك من يدك. فبي لن تعطيك خصبها إذا فلحمتها، طريداً شريداً تكون في الأرض".

العهد القديم بالكتاب المقدس: ط4، الإصدار الثاني، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، 1995، سفر التكوين، ص 4-5.

قائمة المراجع:

أولا : المراجع العربية

أ-الكتب

1. إمام: أرسطو والمرأة، سلسلة الفيلسوف والمرأة ، 2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996
2. أفلاطون والمرأة، سلسلة الفيلسوف والمرأة، 1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
3. تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981.
4. أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، سلسلة التراث الروحي للإنسان، ج1، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1997.
5. الأساطير المصرية، ترجمة أحمد السرساوي، مراجعة وتعليق علاء الدين شاهين، المركز القومي للترجمة، العدد (1848)، القاهرة، 2011.
6. نساء بابل؛ الجنرر والتمثلات في بلاد بين النهرين، ترجمة مها حسن بحبوح، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2013
7. تاريخ الأديان وفلسفتها، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1963.
8. 4ط، الإصدار الثاني، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، 1995.
9. عشثار ومأساة تموز، الأهلي للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 1999.
10. مغامرة العقل الأولى؛ دراسة في الأسطورة- سوريا وبلاد الرافدين، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، 1994.
11. لغز عشثار؛ الألوهة المؤنثة و أصل الدين و الأسطورة، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، 2002.
12. أساطير التوراة الكبرى و تراث الشرق الأدنى القديم، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق، سوريا، 1999.
13. أساطير العالم القديم، مكتبة الناظفة، القاهرة، 2006.
14. تاريخ الأسطورة، ترجمة د.وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2008.
15. الفلسفة البيئية؛ من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ترجمة معين شفيق رومييه، ج1، العدد 332، أكتوبر 2006، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
16. أشهر الأساطير في التاريخ، دار الكتاب العربي، دمشق- القاهرة، د.ت.
17. المرأة المصرية القديمة، دار الشروق، القاهرة، 1995.
18. تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا، 1986.
19. أزمة الأدب النسوي، ط1، المكتبة الأكاديمية، الجيزة، القاهرة، 2013.
20. مكانة المرأة في الحضارات، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، العدد 31، ديسمبر، 2017.

ب: المعاجم والقواميس

1. إمام عبد الفتاح إمام:معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.

2. ج . فيود: ديانة مصر القديمة؛ مجمع هيلوبوليس وعائلة أوزيريس، ترجمة فاروق الهاشم وفراس سواح ، موسوعة تاريخ الأديان: الشرق القديم، تحرير فراس سواح، الكتاب الثاني، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 2017.
3. حسن نعمه :موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1994.
4. عبد الرحمن بدوي : الموسوعة الفلسفية، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984.
5. ف جيوراند:الآلهة والأساطير اليونانية، ترجمة أسامة منزلجي، موسوعة تاريخ الأديان؛ اليونان وأوروبا قبل المسيحية، الكتاب الثالث، تحرير فراس سواح، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، 2017.

ج. الدوريات

د. الرسائل الجامعية

1. قتيبة أحمد سليمان :عقائد الخصب في حضارتي بلاد الرافدين ووادي النيل؛ دراسة مقارنة، أطروحة غير منشورة لنيل درجة الماجستير، كلية التربية، جامعة واسط، قسم التاريخ، 2010.
- ثانياً: المراجع الأجنبية:

أ: الكتب

- Gods of the Egyptian or Studies in Egyptian Mythology, Vol.1, Methuen & Co London, U.K, 1904.:A Wallis Budge 1
- A study of the Pantheon Through Times, Submitted in Partial Fulfillment of the Requirement for Honors in the Department of Classics, Union College, June, 2018.:Caitlin Williams: 3
- Greek Myths and Mesopotamia, Routledge, London, 2005.:Charles Penglase 4
- Mary Magdalene and the Divine Feminism, Summit University Press, Gardiner, Montana, 2005:Elizabeth Clare Prophet 5
- Green Paradise Lost, First Ed, Round Table Press, Massachusetts, 1979. : Elizabeth Dodson Gray 6
- Review of Myth, Religion, and Mother Right, University of Chicago, Selected Writings of J. J. Bachofen. Translated and adapted by Ralph Manheim from Mutterrecht und Urreligion, 1 ST Ed. Rudolf Marx, 1926.:George. Stocking, JR.7
- The Revenge of Gaia; Why the Earth is Fighting Back, and How Can we Still Save Humanity, Beguine Books, London, U.K, 2006.:James Lovelock 8
- Gaia; A new Look at Life in Earth, Oxford University Press, 2000:James Lovelock 9
- Ancient Mother Goddesses, and Fertility Cults, Journal of the Association for Research on Mothering, Vol. 7, Number 1.:Johanna H. Stucekey 11
- the Masks of God; Primitive Mythology, Secker&Waburg, London, U.K, 1960: Joseph Campbell 12